اخلاق ومشاهد

درس اخلاقي ادبي اثاري

تأليف : يوسف غصوب

تصوير : عزت بك خورشيد



طبع من هذا الكتاب مئة نسخة على ورق باجكي
مرقومة من ١ الى ١٠٠

طبع بمطبعة الجليل * شارع البوسطة
بيروت — ١٩٢٤

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

تقدمة الكتاب

الى الشبيبة الناهضة اقدم كتابي هذا

ما هو مجموعة الفاظ لغوية ولا ابحاث سياسية ولا قضايا فلسفية إن هو الا بعض مشاهد وطنية واخلاق اجتماعية رسمها اليراع صوراً وحفظها الطرس عبراً. تعرض على البصيرة بعد ان عرضت على البصر عسى ان يكون فيها نفع او تفكهة

هناك إبر تخز وضحكات تتطاير من خلال السطور وابتسامات تبرق بين الحروف اما للكآبة فيها الحظ الاوفر فهي تجاوز البسمات وتبدو من وراء الانتقادات. هي انة الفؤاد لما نحن فيه من بأس وبؤس فارجو القارئ الكريم ان يتجاوز بالفكر حدود الالفاظ فيفتح ناظريه على ما لم يجر به المداد ولم تستوعبه الصحائف.

وقد حليت جيد الفصول — لذة للنظر وتأملا للفكر — برسوم صديق عزيز قد بذ — على عصاميته في فن التصوير — الكثيرين من المشتغلين فيه

فاذا اقشعتُ بهذا الكتاب غمامة عن جبين او اثرت ابتسامة على ثغر او هيجت عاطفة في قلب فقد بلغت به غاية قصوى

يوسف غصوب

مقدمة الكتاب

مصر في ٢٢ ابريل سنة ١٩٢٤

الى حضرة الاديب الالمعي يوسف غصوب افندي حفظه الله

وردني كتابك وقرأت ما ضمنته . فلبيك . كان شغلي كثيراً وحال دون سرعة الرد ما حال . ولو علمت بعض ما انا فيه لعجبت كيف يتسنى لي ان اقرأ او اكتب . ولكنك سررتني بجدة ما تصورت وصورت ، هذا مع صحة ما ذكرت . وجرأتك في بعض ما قررت . وكل اولئك مما يرضي شيخاً مثلي مصراً على فتاء النفس ما دام حياً

لعلك عاذري ان وجدت تقصيرا وحياك الله وبياك

خليل مطران

ايها القارئ الحبيب

اقول الحبيب واياه اعني مع انه غير عازب عن فكري انني لا اعرف السواد الاعظم من الذين سيطالعون هذا الكتاب ولكن كلا من ابناء وطني — وان لم اعرفه — اليَّ حبيب . وسلام على كل من تظله سماء ذاك الحمى المفدّى في الغدو والآصال

انتهت مقدمة المقدمة فارجو ايها القارىء ان تغفر لي هذا النذير بفصل قد يطول وان تشفع لدى حلمك حبك لوطنك ورأفتك بمفارق طال غيابه فاستهل كلامه بشوق اكثر من بثه وتحية لم يقف في ادائها عند حد الاشارة كما هي التحية في هذه الايام

اما بعد

فاقدم بين يديك ايها القارىء الحبيب كتاب « اخلاق ومشاهد » وصاحبه يوسف غصوب افندي هو الذي برغبته اليّ في تسطير هذه المقدمة قد ضرب سحابة سوداء على باب كتابه المنير . كتابه سلسلة صور للحياة الاجتماعية الشرقية عامة والسورية خاصة . انشاؤه حسن الديباجة منسوج باللطائف موشى بدقائق الملاحظات لا تكاد تفرغ من فصل فيه حتى تبدأ بتصفح الآخر وما تخالك الا عارضاً اهل بلدك تارة في حالة من حالاتهم يستدرك المؤلف عليها استدراكاً لطيفاً مقنعاً مفيداً وطوراً في انسان يمثل خلةً من الخلال الاهلية يصفها المؤلف غالباً بما يغني عن الزجر والتعنيف في الحمل على تركها والاقلاع عنها

لقد رجعت من وقوفي على هذا الكتاب وفي خلدي ان صاحبه قد جاء في مجال الادب العصري بامور :

فهو ألمعي يتصور الغرض الذي يكتب فيه حساً ومعنىً فيصوره لك حساً ومعنىً : « تعاس شاب اسمر البشرة كث الشعر اسوده له شاربان منحدران على شفتيه وحاجبان مجتمعان فوق انف طويل محدب يشبه منسر النسر » . هذا من حيث الجثمان واما من حيث الروح فتعاس فتى « تغلب عليه الكآبة واذا تحدث جاء كلامه متقطعاً شديد اللهجة يدفع بعضه بعضاً كأنه قاذف من خزّان » واني لشديد

الكلف بالكاتب الذي يعرف ما يريد ويكون قد اتجه قبل ان يوجه غيره

وهو اديب يحب الاصلح ولو خالف المألوف ويطلب الوصول اليه خاصة من طريق النقد. وله بصر بالجمال وفي نفسه نزعة الى الشعر فينظمه مقلاً ويجيده ويؤثر سهله على جزله

وهو وطني صادق النزعة حارّها قد يشتد تفجر حميته لبلاده في مواضيع من كلامه كما تراها تحت عنوان « المهاجرة » ولكنه يحرص ان يتفرس في الحقيقة ولو آلمت العصبية كما اقرأك قبل ذلك في فصل « الوطني المتطرف »

وهو نصراني لا يخشى الخزي من الجهر بدينه ولا يرى في عار الصليب الا آية آيات الفداء ونهاية نهايات الرحمة بالعباد

وهو مُبين يعطي الاسلوب حقه من الاجادة ولكن اذا اعتركت فصاحة اللفظ وسهولة التناول آثر ان يفهمه قارئه بكل قوة المعنى الذي اراده على ان يفهمه بالتقريب وقد بادأك بمثال منذ الصفحة الاولى في قول تعاس: « انا مسطرة لبضاعة كثيرة »

كم حقيقة ثمينة في هذا الكتاب

كم حكمة سيقت اوقع مساق في النفس

كم سهم جارح ولكن انما المقصود به الشفاء: اقرأ مثلاً ما يقول في « الصحف » وفي « بعض النساء » وفي « التشبه الاعمى » وفي « النعوت والالقاب » على انه في هذا الفصل المذكور آخراً قد وصف تشبث الاكثرين جهلاً بالنعوت الفارغة. فألق بلحظك معي على آخر عبارة من هذا الفصل وتمتع بجمال سذاجتها وجلال مغزاها كما تمتعت. فقد وردت بالنص الآتي:

« وهناك ايضاً شنشنة عند بعض الكتاب فانهم اذا حبّروا ورقة او كتبوا سطرا او عرّفوا كويتباً فلا تسل عن القاب التعظيم والتبجيل كاللوذعي والعلامة والفهامة وفريد عصره والعالم القح الى غير ذلك من الالفاظ الغريبة التي قل ان تجيء في محلها »

« وكم هناك من زجاجات الخل كتب عليها : الخمرة الجيدة المعتقة »

ملء الكتاب باشتات محاسن وكان على حد ما سُمي اخلاقاً ومشاهد . واني لاعتقد ان مطالعيه سينتفعون به انتفاعاً عظيماً من حيث هو لا يتادى الى تبيين الصالح لهم من غير الصالح باطلاق بل من حيث هو يقتصر بخاصة على تبيين الصالح لهم من غير الصالح على النحو الذي تريده الحياة الاجتماعية في آخر ما رقيت اليه لايامنا هذه

ومما زاد هذا الكتاب قدراً تلك الصور الرمزية الجميلة التي لا يعيبها الا انها قليلة من صنع المتقن الحاذق عزت نثار بك خورشيد . انظر الى تعاس تجد ان المصور قد رآه بعين الكاتب وحركه على النحو الذي اوحاه روح الكاتب فكأن الريشة واليراعة ما كانتا الا واحداً . وسائر ما رسم هذا المتقن المجيد جامع بين الدقة وقوة الخلق الفني يبدو ذلك حيثما قلبت الصفحات

فانا اشكر للمؤلف الفاضل انه اقرأني كتابه واعتذر اليه عن ضآلة هذه المقدمة وما اقلها حمداً لدى نفاسة ما اهدى

مصر في ٢٢ نيسان سنة ١٩٢٤ خليل مطران

وقع في طبع هذا الكتاب بعض اغلاط مطبعية لا تخفى على القارىء اللبيب


تُعاس
عزت

نعاس

تعرفت بنعاس في يوم من ايام الشتاء في احدى قهوات المدينة .
كان جالساً الى « طاولة » مسنداً رأسه الى يده يدير في القوم نظراً حاداً . يدلي شفته تارةً ويقطب جبينه أخرى وتتيه على وجهه في بعض الاحايين ابتسامة خفية تعبر عما يجول في نفسه من المرارة او الهزء بمن حوله من اللاعبين بالنرد او المجتمعين حول كأس من العرق

اردت ان اشعل لفافة تبغ فسألته كبريتاً فاسرع باشاً ثم عاد الى جلسته الاولى فأخذت مكاني قربه وما لبثنا طويلاً حتى تناولنا أطراف الاحاديث

هو شاب اسمر البشرة كث الشعر اسوده . له شاربان منحدران على شفتيه وحاجبان مجتمعان فوق انف طويل محدب يشبه منسر النسر . تغلب عليه الكآبة واذا تحدث جاء كلامه متقطعاً شديد اللهجة يدفع بعضه بعضاً كأنه فائض من خزان

. . . . .

سألت « تعاساً » يوماً ان يسرد علي شيئاً من امور حياته فقال :
انا مسطرة لبضاعة كثيرة

نحن طائفة من الشبان منتشرة في انحاء المدينة لا ندري ما نطلب ولا ما نريد. نرى كل شيء في العالم ناقصاً مضطرباً آئلاً الى اسوء ما يكون . نهز رأسنا لكل خبر ونرفع اكتافنا لكل حديث . لا يروق في اعيننا شيء ولا يعجبنا امر ونود لو كلفنا تنظيم العالم على غير نظامه لنخرجه كما نشاء

وبلغ بنا روح الانتقاد الى انتقاد نفوسنا كما فعل الحطيئة حين هجا نفسه حيث يقول :

ارى لي وجهاً قبّح الله خلقه فقُبّح من وجه وقبّح حامله

واری عینیك تسألاني عن سبب هذه الحالة المؤلمة التي نشعر بشرها ونطلب لها دواء فلا نجد . فاعلم انه من مدة عشرين سنة او اكثر بُليت هذه البلاد بمرض يدعى المباهاة والمفاخرة في تعليم الآباء ابناءهم فتناولت العدوى الغني والفقير، التاجر والفلاح، المدن والقرى حتى غصت المدارس بالاولاد المرسلين اليها من مختلف الاماكن والطبقات

والاولاد صغار العقول لا يدركون من امور الدنيا شيئاً . ليس اهون عليهم من ان يضعوا نفوسهم مواضع لم يخلقوا لها فكان الفقراء يتشبهون بالاغنياء ويجهدون نفوسهم وجيوب ابائهم ليكونوا على مستوى واحد مع رفاقهم

وكنت انا ابن رجل قروي لا يحسن الكتابة ولا القراءة . كان عنده شيء من المال فأبى ان يكون ابن جارنا الغني في المدرسة واكون انا في الحقل . فذهبت الى المدرسة وبدأت حياة جديدة ما كنت

لاحلم بها . ولكنني ما لبثت ان فتحت عيني فرأيت نفسي في موقف حرج بين رفاقي . هم في راحة من لباسهم ومآكلهم وشربهم وانا في قلق من ذلك . هم لهم الهدايا والزيارات والتنزه في المركبات وانا بعيد عن هذا . هم يعيشون في بيئتهم وانا اعيش في بيئة غير بيئتي

فنظرت اليهم نظرة ملؤها البؤس والحسد . وأخذ منذ ذلك الحين يتولد في روح الانتقاد فصرت اجمع افكاري واحصر عقلي لافتش عن عيوبهم واهزأ بهم . ثم ملت الى الانفراد عنهم كبرا وبغضاً وبت انزوي الى نفسي واحرق بالافتكار كبدي . وحال ذلك بيني وبين الدرس فما نجحت الا قليلاً وما حفظت من العلوم الا النزر وما استفاد والدي من ارسالي الى المدرسة الا استخفافي به وباعماله وتكبري عليه وتصعيري خدي له . ولم يتمكن من ابقائي في المدرسة الى نهاية دروسي فاخرجني منها وانا بين . بين . كالغراب الذي اراد ان يتعلم مشية الحجل

تركت المدرسة واخذت اطلب عملاً وما عمل من كان مثلي . أأرجع الى الحراثة والزراعة ؟ لا لعمري . تلك صناعة لا تليق بي . ابعد القلم والقرطاس اقبض على المحراث ابعد معاشرة الاغنياء ومناجاة الشعراء واحاديث القدماء ارجع الى رفقة الثور والحمار

فطلبت مركزاً عند بعض التجار فقبلني قبولاً لا عوزاً ولا اضطراراً . وما باشرت عملي حتى ثقل علي الاستخدام لا سيما والتاجر اخذ يستعملني في امور كنت اكبر عليها كانه يجهل اني قضيت مدة طويلة في المدرسة فتركته الى غيره وهذا اظهر استياءه مني فتركني وبقيت كذلك من عمل الى عمل وهلم جرا . . .

وهلم جرا . الى ان اصبحت كما تراني ألوم الناس والزمان والنحس وغير ذلك . ولو بحثتُ عن الحقيقة للمت نفسي اولاً ولمت والدي ثانياً فاننا فتحنا الباب على مصراعيه وقلنا للبؤس : تفضل وادخل

واظنني قلت لك انني لست وحيداً في هذه المدينة فاننا كثيرون. ولكن بعضنا قد وجد باباً للتخلص من هذا الداء فهاجر الى البلاد الاميركية ولا غروَ ان يكون شفي اكثرهم هناك لان تلك الاقطار تعوّد على النشاط والجد والعمل وتضع ستراً دون الحياء من الشغل ودون الخجل الكاذب

آه ليت والدي علمني الفلاحة او النجارة او الحياكة !!



في مأوى العجز

قصدت ذات يوم زيارة « مـأوى العجز » وانا في بعض الطريق اذا بتعاس يجرُّ رجليـه وعلى وجهه علائم الضجر والسآمة فاقتربت منه واخذت بذراعه وقلت : قد طالما نقمت على البشرية وشرائعها واظهرت شرها ومعائبها فانك لا ترى الخير او لا تريد ان تراه واذا

شهدت شراً حملت علمه وشهرته . فهل لك في مرافقتي ساعة لعلك تخفف من حدتك في انتقاداتك

فاجاب تعاس الى دعوتي لا فرحاً ولا مستاءً ولكنه وجد فرصة لقتل ساعة من الزمن فاغتنمها

فسرنا حتى انتصب امامنا بناء فخم تحف بارجائه الاشجار والرياحين والازهار

فدخلنا حتى وصلنا الى رتاج الدار . فقال لي تعاس : ان صاحبك لواسع الثروة سابغ النعمة

فقلت له : ألم تقرأ ما على هذه اللوحة هذه دار الفقراء لا دار الاغنياء

وما اتممت كلامي الا وراهبة مقبلة علينا وابتسامة على محياها وهي تقول : اسعد الله نهاركما يا سيدي تفضلا ·· لا غرو انكما من تلاميذ الكلية اليسوعية فان فتة الكبار قد وعدونا بمجيئهم اليوم وقد ارسلوا لنا بمناسبة عيد القديس يوسف مالاً وانواعاً كثيرة من المآكل والخضر وسيأتون لخدمة « هؤلاء العجز »

فقلنا لها : لا يا اخت ولكننا اتينا نزور البؤساء لعل يكون لنا اجر في السماء واذا كان التلاميذ يأتون اليوم كما تقولين فنحن ان شئت ندخل في صفهم لخدمة اخواننا في الانسانية

فهشت لنا الراهبة وقالت : تفضلا وان اردتما فتعرفا « باولادي » ولا تعجبا فهم اولادي لانهم قد شاخوا وكبروا حتى رجعوا الى اول الحلقة التي بدأوا بها فهم في وجوه الكبار وعقول الصغار

ثم مرت امامنا الراهبة حتى دخلنا غرفة معدة للنساء قد جمعوا فيها عدداً كثيراً منهن وهن على احوال مختلفة من الآراء والافكار

والمناظر ففيهن الفاقدة النظر والفاقدة العقل وفيهنَّ من لا تفهم الا بالاشارة . وفيهن المعربدة التي تصيح وتصخب وتلح في طلب امر لا وجود له ولا تهدأ الا بعد الملاطفة الطويلة والكلام اللين الكثير . . . والراهبة لا تفارقها الابتسامة ولا يرتفع صوتها ولا تتذمر على ربها بل تجهد نفسها لتقوم بحوائجهن احسن قيام . فتقدم ذراعيها للمتثاقلة الخطى وتهدي البصيرة وتبدل ثيابهن وتغسلها وتطعم بيدها اكثرهن . .

فقلت لتعاس هل لك في مركز كهذا فقال لي متأثراً .

ـ قد يكون مركزي هنا « ولكمن مع العجز » !

ثم انتقلنا الى غرفة الرجال فاذا فيها مختلف الطبقات . فهذا يخبرك بسابق عزه وثروته وانقلاب الدهر عليه وتكاثر المصائب مما اوصله الى ذلك المأوى . وهناك ترى شاعراً يسرد عليك قصائده وينحو على الناس باللائمة لاغفالهم قدره . ومنهم من قد تكون الكأس لعبت دوراً سيئاً في حياتهم ومنهم الانوف المترفع الذي ينظر الى الزائر نظرة المستاء لصلاح حاله على فساد حال العاجز . . .

وما لبثنا زمناً يسيراً حتى جاء التلاميذ وكلهم من اشرف اسر البلاد واوسعها غنىً

وما دخلوا حتى اشرق الدار بوجوه الشبيبة الزاهرة فحملوا معهم الربيع الضاحك الى الخريف العابس وسرى منهم روح النشاط الى تلك الاعضاء الباردة . فأخذ كل فتى يحدث (شيخه) ويذكره بشبابه ويفتح له نافذة على غابر زمانه . وان هذه الشبيبة لتحمل في وجوهها والفاظها من المسرة والبشر الى قلوب العجز اكثر مما تحمل لهم في ايديها وجيوبها . وان زيارة كهذه فيها نفحة من السعادة يفتح

لها البائس صدره ليتزود منها الى امد بعيد

ثم جاء وقت الطعام فمن قدر قام الى المائدة ومن عجز بقي في فراشه وربط التلاميذ الوزرات حول اوساطهم واخذوا يحملون الطعام الى اولئك الشيوخ . وقد يأخذون الملعقة ويساعدون الاعمى الضرير على تناول الغذاء

ومنهم من بقي في المطبخ يغسل القصاع ويسكب الطبيخ ويشعل النار . ومنهم من همه محادثة شيخ كبير لا يدور لسانه في فمه ومنهم من يصغي الى خرافات عجوز بلهاء

ولا تقل انها مأدبة قاصرة على الوان قليلة او حقيرة من المآكل . بل انها مأدبة فاخرة عليها مثل ما يكون على موائد اعيان القوم من انواع اللحوم والفاكهة والمربيات . تشنف الاذان فيها الات الموسيقى وتشرب فيها الانخاب

ولما كان كل واحد منصرفاً الى عمله قلت لتعاس . الا ترى ان في هذا العالم بعض الصلاح وانا اذا وضعنا هذا الصلاح في كفة والفساد في الكفة الاخرى لتوازيا او رجح الصلاح . فان الشر يؤتى به على السطوح وفي الطرقات واما الخير فلا يسعى لعيون الناس بل لنفسه فلا يهمه خفيَ ام ظهر

ثمَّ الا ترى في الجمع بين هاتين الطبقتين طبقة الفقراء وطبقة الاغنياء وخدمة هؤلاء لاولئك عملاً جليلاً يرفع النفس ويقف عنده المتكبرون والاغنياء صغاراً حقيرين . فبدلاً من التبجح والغطرسة اليس الاجدر بهم ان يقوموا باعمال تخفف من تعاسة ابناء جنسهم وتقلل من ويلات البشرية . أليس من العدل ان يرجعوا لهم قليلاً من اموالهم ولو بطريقة

الاحسان

فما احس تعاس بانتقادي وتلميحي حتى اشرقت اسرة وجهه وتحرك لسانه في فمه وتلمظت شفتاه وهم ان يأخذ في الحديث فبادرته وقلت

— دعنا الان يا تعاس نفتكر بهذه الاعمال اعمال الاحسان والرحمة والشفقة والمحبة وخلّ الملامة والانتقاد ليوم اخر . الا ترى ان المحسن اشد سرورًا وارتياحًا من المحسن السيء . فان هؤلاء التلاميذ كلما رأوا على وجوه اولئك العجز الفقراء ابتسامة شعروا بسعادة عظيمة تلج صدورهم وترفع قلوبهم وتحبب اليهم الخير وتزيدهم نفورًا عن الشر . ولو لم يكن في عملهم الا هذا لكفاهم جزاء . فاني لحظتُ يا تعاس ان عمل الخير جزاؤه منه وفيه في هذه الدنيا والله موكل بجزاء الاخرة . فان اردت ان تنير شمس السعادة في ظلمات قلبك الحزين فعليك بقليل من الخير . . . ولو على سبيل التجربة



الى الوظائف

بينا انا في مكتبي صباح يوم من ايام الشتاء اذ بتعاس ماثلاً امامي وما كدت اقف له حتى بادرني بالكلام قائلاً :

اعلمت ؟! لا نزال حيث كنا قبل الحرب . كل شباننا يسعى الى الوظائف والاستخدام فتلك الدوائر هي قطب افكارهم وجل غايتهم من الحياة . ما قرأوا اعلان الحكومة في طلب تراجمة حتى انهالت على الحكومة الطلبات ففاقت المئة . كلٌ يريد ان يصير ترجماناً فهذي لعمري حالة لا ترضي :

ـ فقلتُ ـ وماذا تصنع انت الان ؟

قال ـ قدمتُ طلبي على علمي بعدم نجاحي فان النحس الذي رافقني منذ صباي لا يزال ملازماً لي ملازمة خيالي ـ .. على اني احببت ان ارى وجوههم

ـ وجوه من !؟

ـ وجوه المترشحين . تقدمتُ الجميع صباح يوم الفحص فاذا هم يأتون فرقاً فرقاً . يتحدثون باحاديث ليس لها في الامتحان ناقة ولا جمل . يتلاهون عما جاؤوا لاجله وهمْ منه في شغل شاغل . ومن اغرب ما رأيت ان بعض المرشحين ركبوا المركبات ليأتوا سراعاً . وقد نزل من المركبة احدهم فخلت انهُ احد الفحاص لتأنقه في لباسه وتقدمه في العمر ورفعهُ سبلتيه كانه من اقرباء غليوم

وكانوا يأتون افواجاً حتى غص المكان بهم وكان مدرسة تلامذتها متغيبون فاخذ بعضهم ينظر الى الاوراق المعلقة في الجدران ويتذكر ايام الصبا ويذكر رفاقه بما كان عليه من كسل او « شيطنة » ويأتي بالاحاديث الطويلة . وهو يقول في سريرته : ان الموقف حرج . هذا غلام يحسن الكتابة وله مقدرة في الترجمة . وذلك على جانب عظيم من الذكاء . كان الاوفق لي ان لا اخاطر هذه المخاطرة ولكن المترشحين كثيرون ولا ضير اذا سقطت مع اكثرهم . ثم يوجه الكلام لرفاقه ويقول : انا ما جئت لاقدم الفحص انما وجدت متسعاً من الوقت فاحببت ان اضيعه هنا . ارى اصحابي اولاً واقتل وقتي ثانياً وهبوا اني نجحت فانا مستقيل لا محالة لان لديَّ اشغالاً تمنعني عن هذه المهنة وقس على ذلك احاديث كثيرة

وكانوا يأتون افواجاً حتى ملأوا غرف المدرسة . رجال وخط الشيب شعورهم وشبان في اشدهم ينظرون شزراً ولا يكلمون الا من شاهق . كلهم يطلب الوظيفة ولا يفكر في باب رزق اخر يلجه وينتفع به وينفع به وطنه

لاشك ان داء الوظائف متأصل فينا مختلط بدمنا

واخذ كل واحد مركزه . وجاء احد الفحاص فالقى عليهم الموضوع وكان صعباً قليلاً . فتطاولت الوجوه وانفتحت العيون واخذ بعضهم ينظر في سقف الغرفة ويعد اخشابها او يقرأ ما كتب على الحائط لتعليم الصغار او يبدأ فنَّ التصوير على الورقة التي اعطيت له للمسابقة . وبعضهم اخذ ينظم شعراً . انا ما رايت الشعر على ورقته ولكني رأيته رأسه على يده وقلمه في اذنه وعقله في القمر

وما مر من الوقت الا القليل حتى اخذ بعضهم ينسحب بنظام وبعضهم بغير نظام . وذلك بان يضرب قلمه بخشب « الطاولة » ويمزق ورقته ويخرج رافعاً راسه يعني انه لا يتنازل لمثل هذا العمل

وانتهت المسابقة الكتابية وانفض عقد الجماعة

ولما رجعوا للمسابقة الشفاهية ما كانوا الا قليلا . ولكن حدث هناك عن التبجح ولا حرج . فمن مطنب بنفسه مدحاً وبغيره قدحاً ومن مدعٍ انه لم يعتن بالامتحان فكيف لو اعتنى ومنهم من اخذ يعدد معارفه ومراكزه السابقة ومنهم من ينشد اشعار المتنبي ويا ليته انشدها على اصلها . ولو بعث المتنبي من قبره وسمع منه ذلك اللحن والتبديل والقوافي المتقلقلة لصفعه صفعة لم يعد من بعدها الى الانشاد

ولما انتهى الفحص واعلنت النتيجة رأيت بعضهم يتذمر ويتغضب وينحو باللائمة على الفحاص وعلى النحس والزمان واما الفائزون فكانوا كالديوك على المزابل منهم من يمشي الخيلاء ومنهم من ينظر شذراً ومنهم من يفتل شاربيه ويبسم وينفخ خديه كانه صار من مصاف الرجال العظام

قلت — وانت يا تعاس هل نجحت ؟

فقهقه تعاس وقال — وهل نجحت في غير هذا لانجح الان

ثم حمل عصاه وولى

ثقيل — رسالة من نحاس

ايها الصديق العزيز

انا ما نسيتك ولن انساك انما اتجنب زيارتك خوفاً من قوارص كلامك وخفي ابتسامك

ثم اني كرهت الزيارات لما نالني من احد الثقلاء . فانهُ لا يأتيني الا في ساعة لا انتظره فيها . ولو جاءني لامر او غرض في نفسه لقمت الى انجاز رغائبه واسعاده في مطالبه . ولكنه لا يحمله الى غرفتي الا عادة اعتادها وطريق ألفها

أقبل هذا اليوم صباحاً وجلس ومــا زال حتى اقترب الظهر وانا ابدي له بلطف ورقة اني في غنىً عنه ولكنه لا يزيد الا تمكناً من مقعده وتماديا في ثقالته . فهو يضحك ويستغرب ضحكاً وانا تتقطع نياط قلبي غضباً

وما وقف عند هذا الحد بل عمد الى كتبي فقلبها ورسائلي ففتحها . وهمَّ بالذهــاب مراراً ثم عاد فجلس وبدأ يسرد تاريخ حياته وحياة اسرته ومعارف جده وجدته . ويصل بين مختلف الاخبار . والتواريخ والاعمار . ويقول فــلان صديقي وله قدر وشهرة . وتعرفت به يوم كذا . وقد قال كيت وكيت . وما الطف ما كان عمه فلان . وكان لعمه ولد غاية في الذكاء وآية في الجمال انما وقع ذات يوم فاتوه بالطبيب والطبيب له براعة ولباقة في التجبير درس ذلــك في باريس وباريس

عاصمة العواصم وام المدنية والمدائن وهلم جرًا ! . . . لايدع لاحد كلاماً ولا يلم بموضوع الماما بل انه يوفّيه هذياناً

وما صدقت ان وضع رجله خارج العتبة حتى دفعت الباب في ظهره واوصدته ايصاداً محكماً حتى لا ادع له الى العودة سبيلاً . ثم اخذت هذه الورقة وقلت : اسكب عليها جام غضبي وارسلها لصديقي عله يسر لتلاوتها او يلصقها في جدار غرفته يرشد الى قراءتها من زاره من الثقلاء

وليس ما سبق اليراع الى كتابته الاَّ حالة من حالات هذا (الثقيل) الذي مهما اختلفت مظاهره وتعددت، وتقلبت ادوار عشرته وتطورت، لا يكون الا ثقيلاً

لا ارى كيف اصف هـذا الرجل واحدده بمميزاته . فانه حسن الوجه طلق اللسان رخيم الصوت له نظر في المسائل ورأي في الحوادث وقد يصيب الحقيقة . . . ولكنه ثقيل مع فضله وغزارة علمه

كل اشارة من اشاراته وكل حركة من حركاته تدل عليه وتستلفت اليه نظر الناس . فتراهم هذا يتأفف وهذا يتذمر وهذا يضحك في سره . وصاحبنا جارٍ في حديثه لا يلوي على احد ولا يأبه لاحد

ارشدته مراراً والطفت له الحديث في ذلك ولكن ما الفائدة وهو كلما اراد شفاء زاد داء فناله ما نال ذلك الحمار

قيل انَّ حماراً رأى صاحبه يلاعب كلبه الصغير فيمر اصابعه في صوفه الابيض النقي ويلقي الكلب قوائمه على ركبتي الرجل . فحسده الحمار لهذا التقرب وقال في نفسه : لمَ لا اتدلل على صاحبي كما يتدلل هذا الكلب الصغير . وقام لساعته واقترب من الرجل ورفع قائمتيه

والقاها بشدة في حجر صاحبه فكاد ان يهلكه . فقام اليه الرجل وانهال عليه بالسوط حتى ندم على ما كان منه

فمن الصعب اذن ان يخف من ولد ثقيلاً . وفي الامثال : الثقيل اذا تخفف صار طاعوناً

ولكن هناك بعض امور يسهل عليه تجنبها ومن ذلك :

ان لا يطيل الزيارة في غير حاجة

وان لا يوقفني في الطريق لامر لا فائدة فيه وانا ماض الى موعد مضروب

وان لا يرمي بنفسه عليَّ ليقبلني ويراني ابعد عنهُ

وان لا يركب في مركبة او سيارة وليس هناك من مطرح فيستحي الركاب منه فيتلازون ويتضاغطون حتى يرتاح جناب الثقيل

وان لا يتمادى في حديثه ويرى ان الحاضرين يتثاءبون . ولا لا . . .

اراني قد اطلت عليك واخاف ان تسلكني في سلك الثقلاء ، فاختم كتابي داعياً لك بطول البقاء بعيداً عن هؤلاء



المطالعة والروايات

لقيته في « الترام » فاذا كتابٌ تحت ابطه فقلت له :

– ما تتأبط يا تعاس ؟

قال – خيرًا . . هـذه روايةٌ افرنجية اطلّ من نوافذ سطورها على عالمٍ خيالي انزه به مما يحف بنا في عالمنا الحقيقي من اوحال واوساخ ولا اريد اوحال الطرقات والشوارع فقط بل اوحال الكذب والنميمة والعجرفة وغير ذلك . . . أجلس الى مكتبي . اضع رجلاً فوق رجل واشعل لفافة تبغ وافتح كتـابي . . . فاذا انا بين الغيوم . سابحًا بين الكواكب والنجوم . اراقب هؤلاء الاشخاص الذين يمرون بين الالفاظ . ويقفون في طيات الاوراق . مراقبة خفية . الهو معهم وارافقهم في اسفارهم وتنقلاتهم واشاركهم في حركاتهم وعواطفهم واغضب طورًا على بعضهم وابتسم تارةً لبعضهم وهم ادباء اكياس لايعارضونني في نكر ولا يستاؤون لما قد ارشقهم به من الكلام الحاد والسباب . . لعمري قد صدق المتنبي حيث يقول : وخير جليس في الانام كتابُ

ان في المطالعة لذةً غريبةً غير انه لا يشعر بها الا القليلون الذين يتخيرون كتبهم ويميزون بين الغث والسمين منها . فان الكتب كالخمرة . منها الجيدة المعتقة التي تفوح عطرًا وتبدوا شعاعًا ومنها المبتذلة العكرة المتغيرة الفاسدة التي تذهب بالعقل ولا تجدي مسرة ولا نفعًا . ومن القراء من هو كمدمن الشرب يتناول مـا قدّم له من دون تمييز بين

مختلف الخمور. وقد يحسو الخمرة الفاخرة ولا ينتبه للذاذتها وطيبها فكم سكرتُ بفكر دقيق. وجملة منسجمة. وصورة صادقة. وتشبيه غريب. وكم وقفت امام وصف تنزهتُ من الفاظه الساحرة بين روض ارى متنوع ازهاره واسمع نشيد اطياره وخرير مائه كانني واقف بين اشجاره وما انا الا امام صفحة بيضاء رُقشت باحرف سوداء كانها قوائم للذباب

فالمطالعة فنّ ايها الصديق انما الكتابة اصله فعلى الكتّاب ان يتفننوا ويتقنوا ويصوروا الاشياء على ما هي حتى يجد المطالع فيها لذة وفائدة. وليس بخاسرٍ من يشتري رواية ادبية بثمن فنجان قهوة او علبة تبغ

قلت — اراك متهوساً يا تعاس فهل استقيت هذا الهوس من هذه الرواية الافرنجية !. انك تتأبط شرًّا لا خيرًا. هذه الكتب الغريبة تستولي على محالّ كتبنا العربية فتهمل هذه وتلقى في زوايا النسيان وتتبوأ تلك مكانها. على ان معظمها لا يتفق مع اخلاقنا ولا يدور الأ على محور اجنبيّ وعادات ومبادئ لا تلائم طباعنا وبلادنا. بل قد تضرنا وتقف بنا على مفرق الطرقات لا ندري اي طريق نتخذ. فكم من فتى. بعد تلاوة مثل هذه الروايات دبَّ القنوط الى نفسه واصبحت البيئة التي يعيش فيها مظلمةً في عينيه. وكم من فتاة ارادت ان تقتدي ببطل روايتها فاصبحت مسخاً لا شرقيةً تعرف ولا غربيةً توصف. ومما يدل على تأثير هذه الروايات الاسماء الغريبة التي تخدش آذاننا في بيوتنا وفي سواقنا فان اكثرها — ولا شك — وارد الينا عن طريق الكتب الاجنبية

فقهقه تعاس وقال — انك لتضحكني بهذه الاسماء فهي في ديارنا

والحق يقال مجموعة لا شبيه لها في العالم اجمع . فمنها التركية والفارسية والانكليزية والفرنسوية والاسبانيولية والهندية والزنجية . . . فكل الاقطار ممثلة عندنا بادمغتها . ومنها ما لاينطلق به لسان صاحبه فيلوكه ثم يخرجه على غير حقيقته فيأتي بالمضحكات المبكيات . وهذا الشر كما تقول معظمه وارد الينا عن طريق الروايات وما لك الا ان تجول في قرى لبنان لتشهد ما تركت فيها قصص بني هلال وعنترة والزير والملك سيف وفيروزشاه من الالقاب والكنى وما اثارت فيها من المشاغبات والتحزبات لابطال لا صلة لنا بهم ولا قرابة . فكم هناك من « زيديّ » وكم هناك من « دياني » ! فالمطالعة اذن عامل قوي في تكييف احوال الشعوب واتجاه افكارها وانا على رايك في ضرر الروايات الاجنبية غير ان الشبيبة المتعلمة تأنف من قراءة قصص بني هلال وما شاكلها من الخرافات ولا ترى ما يحبّب اليها رواية عنترة لبعد الشقة بين عاداتنا وعادات ابطالها وافكارنا وافكارهم ونوع معيشتنا ومعيشتهم . زد على ذلك سقم عبارتها وكثير مراجعاتها . وفي العربية كتب جليلة القدر . هي كنوز آدابنا نرجع اليها في كل حين ونتلوها في كل وقت على ان الشبيبة عطشى الى الجديد . عطشى الى الكتب التي تدعو الى التفكر والتمعن . عطشى الى موسيقى الالفاظ والى النغمات المطربة . . وفي سوريا ولبنان التاريخيين والحديثين مواضيع روايات شتى . تحت كل صخرة من صخورهما او في كل قرية من قراهما اوتطور يطرأ على مجرى افكارهما ونشوءهما رواية تكتب . والمطالع يأنس بالاسماء المألوفة لديه والعادات التي تقع تحت نظره فما على الكتاب الا ان يمدوا يدهم ليلتقطوا المواضيع والاحاديث ولكننا نرى بعضهم

يعمد الى الروايات الاجنبية فيعربها ويعرضها لقرائه. ومعما في التعريب من الجهد والعناء فانه لا يوازي الوضع ولا يقبل عليه القراء اقبالهم على الكتب الوطنية المحضة. فان معظم شبيبتنا — والحمدلله — اصبحت تفهم لغة اجنبية فهي تفضل مطالعة الروايات في اصلها على ان تطالعها في تعريب قد يكون مخلا ركيكا

ولا انكر ان بين كتابنا في القطرين السوري والمصري من يشار اليهم بالبنان ومن لهم القدح المعلى تنتظر كتاباتهم انتظار المطر عند تمادي الجفاف. فبمثل هؤلاء يجب ان يقتدي الكتاب

واما معظم جرائدنا فلاه بالسياسة عن الآداب وبالمناقشات العقيمة عن الانتباه الى الشبيبة ودرس مشاربها ورغائبها فتضطر هذه الشبيبة للالتجاء الى الاجانب لتتغذى ولو قليلا بغذاء الافكار والخيال وتتملص من نفسها لتشرد في القصور الذهبيــة والجنات تجري من تحتها الانهار

فهل تلومني بعد هذا لتأبطي هذا الكتاب

وكان قد وصل الى المحطة التي ينزل فيها فتركني ومضى قبل ان استطيع الجواب



صيد الحمام

رأيته مقبلاً مقطب الجبين يدوّم في الهواء بطرف عصاه ناظراً امامه كأنه يفتكر . وكاد ان يجتاز ولا يشعر بي فاخذت بذراعه وقلت : مرحباً يا تعاس ! من أين . والى أين ؟

اجاب : اما من اين فمن « صيد الحمام » حيث خسرت آخر فلس كان في جيبي . واما الى اين فلا ادري . . تعاسّ ! تعاس ! لاحظ ولا جدّ او على لغتهم ولا (شانس)

— وما حملك على هذه المضاربة

— ذهبت في اول مرة ولا غاية لي الا التنزه والفرجة . فدخلت مع رفقة لي ذلك النادي .وجلسنا ننظر . وما كنت اخال ان مرض المراهنة يعدي . وكان بقربنا رجل (مشنّس) — رحم الله اباه — ربح في اول صفقة عشر ليرات ثم تبّعها بتسع . فقلت اخاطر بربع ليرة واحسب اني ركبت مركبةً الى هنا . فربحت ثلاث ليرات . وهذه اول مرة ربحت في حياتي . فقلت : جاء الفرج . فراهنت وربحت ايضاً وغادرت النادي في ذلك اليوم رابحاً . ولم انم ليلتي : اضرب واطرح واتشوق للاحد القادم . وظللت على ذلك سحابة الاسبوع

وجاء الاحد فكنت اول من قدم من المراهنين فقطعت اربع ورقات وخسرت الليرة وقطعت مثلها فخسرتها

اتعرف النحس اذا تسلط على المرء كيف يطوقه من كل جانب

فلا يدع له منفذاً يصل اليه منه قليل من السعد . وصل الكأس الى الشفة مرات كثيرة ولكني لم اتمكن من ارتشافه مرة واحدة

ان الصياد الذي قطعت معه ابرع الصيادين وكم من مرة ربح الصفقتين والثلاث تباعاً . ولكن ما احتيالك في نحس ضمنني كل ذلك النهار حتى افرغ جيبي وضيق صدري واصبحت اخاف على عقلي . تصور ان « صيادي » ظل مرة فائزاً الى النهاية ولم يبق له من خصم الا فتى أهوج ما حسبته يصيب الطريدة ولو وضعتها له في فوهة البندقية

فماذا كان ؟ . نهض الفتى الاهوج ورمى فاصمى . ونهض صيادي الشهير وطيروا له حمامة تكاد ان تكون مائتة فرماها فأسفت فخال له انها وقعت فعاد الهوينا الى موضعه . اما الحمامة رجعت وانقلبت وراء الحاجز . . . وخسرت انا ليرتي . فما اعمى قلب ذلك الصياد ! اما كان الاجدر به ان يقتل الحمامة مرتين من ان تفر منه وهو يحسب انه اصابها — رحم الله اباه ولا اقول خلاف ذلك . قد فقدت بطيشه لا اقل من عشر ليرات . .

هذه مرة . ومثلها المرة التي رمى « صيادي » الحمامة فأصابها فحملت نفسها الى الحاجز فوقفت عليه والناس ينظرون اليها والقلوب تخفق وهي تنازع ولم يطب لها الا الوقوع من الجانب الخارجي ولو قضت نحبها داخل الحظيرة لكنت ربحت عشرين ليرة . هذا هو النحس بعينه

وهمّ تعاس بان يسرد لي حوادث اخرى غير هاتين فبادرته قائلاً

— قد خسرت ومضى . فعساك الا ترجع الى « صيد الحمام » بعدها

فحملق فيّ وقال : — وكيف اتعوض خسارتي ؟!

المقامة الزواجية

حدث رقيب بن خبير قال : بينا انا في غرفتي يوماً اذا بالباب قد انفتح فجأة ودخل علي شاب طويل القامة . عظيم الهامة . اسود الشاربين براق الناظرين . يتحدر العرق من جبينه صبباً . وهو يلهث تعباً فقمت اليه . وسلمت عليه . واخذت بيده الى كرسي فاجلسته . وآنسته . وهو لا يحير كلاماً . ولا يرد سلاماً

فتمهلت حتى اذا تبينت في وجهه الراحة هششت اليه وقلت : يا « تعاس » ما عهدت فيك هذا الصمت . ولا رأيتك تنهج هـذا السمت . فما الذي دهاك . فاشجاك . وقد اطلت علينا الغياب . فاين كان الاغتراب ؟

فتنهد واجاب : إسمع فاضحك او فابك . فان حديثي ذو شجون . واني جننت والجنون فنون

وانك تعلم تعسي . وشدة نحسي . فاني ما طمعت حتى وقعت . وما نهضت حتى قعد بي الحظ فقعدت

وقد فكرت ان اتزوج قبل وفود المشيب . ونفور الحبيب . فعرضت لي فتاة كأنها القضيب الغض . في جسد بض . فقمت الى قسيس عرفته خبيراً . يكون بيني وبين الام سفيراً . وسألته بعد المقدمات . ما تراه يكون اسم تلك الفتاة . فلاشك الاسم كالمسمى لا اسمى . فهل هي هيفاء ام جميلة . نجلاء ام جليلة . انيسة ام

عفيفة . نجيبة ام ظريفة . وردة ام سوسن . ليلى ام احسن

فضحك القس في لحيته . واغرب في ضحكته وقال : اسماء عربية تثقل على الاذان . ويعثر بها اللسان . فاين ذهبت بجانيت وجوليت وهانريت ومرغريت . وماري لويس وجوزفين . وشرلوت وروزين فهذه الفاظ عذاب . تلقى بلا عذاب . اما التي سلبت لبك والجنان فانها تدعى رُكسان

فتعوذت بالله ثم توكلت وقلت : ما شاء ربك يكون

وجمعني القسيس بالفتاة . في بيت احد الذوات . فاقبلت علينا مع ابيها وامها . واخيها وعمها . وقد ارتدت ثوباً من الحرير الهندي في لون وردي . قصرت جيوبه والذيول . ونزعت من اكامه الفضول فهي تخطو لا تطأ الارض كأنها فراشة او اخف

ولما سمحت الفرصة واخذنا بالحديث . من القديم والحديث . قلت لها : يا سيدتي يا ركسان . ما اجمل هذا القفطان . لاغرو انك انت طرزت ما عليه . وذيلت حواشيه

فابتسمت ابتسامة المستخف . وقالت بلطف : كيف تحلني هذا المحل . وهل انا اعرف هذا الشغل . فيداي اثمن من ان اجهدهما وعيناي اكرم من ان اسهرهما . وما هذا الطراز . الا من صنع البزّاز . وانا لا أُحسن قص القميص والمنديل . فكيف بهذا الرسم الجميل . ومتى اتعلم الموسيقى والرقص ؟ وانا اجن « بالفلس » . وقد اجدت البولكا والفورلانا . والتنكو اشكالاً والواناً وهل لك بهذا الفن المام ؟

فقلت يا سيدتي ان الزمان الظلام . قد رقّصني بلا نظام . فلم انهج

هذا النهج . ولم ادرس هذا الغنج

فقالت : وهل قرأت الروايات الاخيرة . للكاتبات الشهيرة الروايات الفرنسية لا العربية . وان كتّاب الفرنسيس لمجيدون . ولا يأتون بالدون . فبورجه وهرمان . وبارس وروستان . قداستولوا على لبي . وسحروا قلبي . وقداخذت اخيراً دفتر الازياء للنساء فاذا المخمل مفضل هذا الشتاء . وقبعات الباريزيات كالهالات . وهل تعرف باريز . وهل مررت على التاميز ؟

فقلت : يا سيدتي لا اعرف الا البيت

فقلبت شفتيها ازدراء . وقالت وقد أشربت صوتها جفاء . انا ما رأيتها رأي العين . انما قرأت عنها من الكتب المئين . فلو نقلت اليها . وجلت في نواحيها . لما ضللت الطريق ولو بغير رفيق

واخذت تصل الاحاديث وصلاً لا اعرف له اصلاً حتى كدت انام اونمت . وثقل رأسي وهومت .

فلحظت الام منا هذا الموقف الحرج فمالت الينا بوجهها الظريف وقالت لنا بنطق لطيف : كيف حال الصديقين الجديدين . هل تآلفت الاذواق وهل انتما على وفاق ؟ واعلمي يا عزيزتي ان صديقتي فلانة تسرّ لو نهضتِ للسلام عليها والجلوس قليلاً بين يديها . فانها تحبك حباً لا يوصف وتثني عليك ثناء لا يعرف

ولما قامت الفتاة وبعدت . عادت الام فاستطردت : قد تشرفنا يا سيدي بمعرفتك . ولطفك ومؤانستك

فعمدت الى المجاملة وقلت : ان لي ياسيدتي النصيب الاوفر . وانكم بالشكر لاجدر . وان سيدتي ركسان هي درة من الدرر .

لا شبيه لها في البدو والحضر . فانها كاملة الصفات. ملكة على الفتيات

فقالت: وما لم تره منها اعظم. فهي بكل العلوم علم. قد درست التاريخ وآثاره. والقريض واشعاره. وعلم الارض والطبيعيات. والكيمياء وخمساً من اللغات . وتعرف التصوير والهندسة . والفلك والفلسفة . وقد انفقنا على تهذيبها مالاً كثيراً . وارضعناها من الاداب غزيراً فمنذ نعومة الاظافر. ونشر الضفائر . لم تأت من عمل غير الدرس . وتهذيب النفس . فلو تركت لحالها . لصعب عليها لبس نعالها . لا تدري ما الطبخ وما العجن . ولا تفرق الزيت من السمن . فانا لا نكلفها عملاً . ولا نكبدها مللاً. فهي عندنا اعز من نفوسنا واكرم من رؤوسنا . في خدمتها فتاتان . ولها معلمان . الواحد للموسيقى والاخر للرقص . وقد انجزت بقية العلوم . فان تركتها فلا لوم

قلت: وعلم الحساب هل برعت فيه. وفقهت ظواهره وخوافيه ؟

قالت : هذا علم يعتني به الطهاة . لمشترى الاقوات . وله فائدة عند الخياطين . لنفقات الفساطين . وما تصنع به ابنتي وهي كبقية النساء . لا تكترث لهذه الاشياء!

فبلغ اذ ذاك السيل الزبى . فنهضت وودعت . وقد ضقت صدراً فطلبت هواء حراً

وانا بالدهليز اذا بالقسيس يعترضني في الطريق . ويسألني عن المواجهة والتوفيق . فاخبرته بكيت وكيت . وما سمعت وما رأيت . وقلت له بعد الجدال . أمع هذا الدلال . شيء من المال ؟

فاجاب وقال : « ليس الا القامة . والسلامة . وهذه حالة تدمي الفؤاد وتحرق الاكباد . طالما نبهنا اليها وسخطنا عليها ولكن

بعض الاباء . ابوا العدول عنها كل الاباء . فانا شريكك في الاسى ولكن علك تجد افضل منها وعسى »

فكدت انسى الادب . وانتفض من الغضب اذا ملكت نفسي حتى اذا صرت خارج حبسي . هرولت لا الوي على شي . حتى وصلت اليك . لالقي المسألة عليك

فقلت : قد وقعت على الشواذ . ومن الشواذ العياذ ! وهل لك في فنجان من قهوة لا حلوة ولا مرة

فقال : سويداء على سويداء !!

وقام فأخذ سمت الباب . ولم يزد في الجواب



رسالة الى تعاس

قرأت من خلال سطورك ايها العزيز انك في حالة يرثى لها تأسف على ماضيك وتتذمر من حاضرك وترى مستقبلك حالك الظلام

فانت اذن اتعس من اظلت السماء وماتعاستك الامن صنع يديك: ضممت ساعديك الى صدرك واسكنت في دماغك رتيلاء تنسج لك فيه نسيج البؤس ولا تعمل على نزعها مع ان ذلك طوع ارادتك

أدر لحاظك في الكون ايها الصديق ترَ ان القسم الاكبر من التعساء هم على شاكلتك يقضون حياتهم في طلب السعادة وهي منهم على قاب قوسين او ادنى . ولكنهم يأبون ان يمدوا اليها يداً

فلو اصخت اليَّ سمعاً لاطلعتك على طريقة طالما اختطها الحكماء ليسيروا عليها في معترك هذه الحياة . وهي اربع كلمات ان حفظتها وعملت بها انقشعت عن جبينك تلك الغمامة المتلبدة . غمامة التعاسة

اما اولاها فهذه :

« انس امس الغابر »

فما حيلتك فيما مضى ؟

هل في وسعك ان تغير حركة من حركاتك يوم امس ؟ وهل لك ان ترد السهم الى قوسه وقد عبر ؟ ما يجديك ان تعض الانامل ندماً وتضرب الجبين اسفاً . فتبدأ يومك ووجهك شاحب اغبر . تتأوه وتتحسر ولا تشرع في عملك الا منقبض القلب ضيق الصدر كأنك تجر الى الاشغال الشاقة

لا فائدة في امسك الا ان تتخذ عبرة منه لما فات من هفواتك فيه . فاذا كان منك ما تندم عليه فاجهد في اصلاحه في يومك حتى اذا مرّ لاتأسف على مروره . فلا تعلق للماضي بل دعه يرقد في ظلمات الابدية وانزعه من فكرك فما هو الا مجهدة وعناء

وثانيتها

« اغتنم فرصة يومك »

ان في يومك حياتك كلها . فاذا حسنت ايامك حسنت حياتك فاجتهد في ان يكون كل يوم من ايامك حسناً فلا تندم على ماضيك ولا يزورك الشتاء . استقبل الصباح بوجه صبوح واخطُ الى العمل خطوة ثابتة لا تزلّ رجلك فيها عند اول حاجز . فان الرجل الكسول ليجد العقبات والموانع عند كل خطوة يخطوها : اذا انتشر الغيم في الفضاء قال : يوم ماطر فلا سبيل الى العمل واذا صحت واشتد الحر ولو قليلا قال : حر مذيب وتخدّر في جميع اعضائي . فاليوم نوم وغداً نرى ما يكون

وعلى هذا لا يعمل الكسول من عمل لان معظم ايام السنة يذهب بين يوم قر ويوم حر

فخذ في الشغل غير هياب ولا وجل فتجد في شغلك لذة لاتجدها في كسلك . ومن الامثال ان اللقمة مفتاح الفم

فعليك بالعمل ما قدرت في يومك هذا وقل ان مجموع حياتك فيه . قم من نومك نشيطاً . وثابر على العمل صبوراً . واسدل دون الماضي ستراً وانظر الى المستقبل املا

وثالثتها

« فكر في يومك بما تصنع في غدك »

حتى اذا جاء الغد وجدك قد اعددت له عدته فلا يداهمك على حين غرة ٠ فانك اذا اصطبحت ولا تدري ماذا تصنع يذهب صباحك سدى ٠ وبينا الرجل النشيط يقضي قبل الضحى عشر حاجات ترى الكسول يتمطى في فراشه الى الساعة العاشرة ٠ ان الوقت من ذهب كما يقول الانكليز ٠ ولكن من لنا بمن يمد يده الى ذلك الذهب ويستفيد منه ٠ ان من الناس من ينتظر ان يُطعم وهو على فراشه فقليلاً من الجد يا تُعاس تُقم بينك وبين البؤس حائطاً عالياً ٠ فكر في ساعات فراغك بما تأتيه ساعات عملك ودواليك دواليك تنسى تعاستك وتسعد

واما الرابعة فهي

« أقدُر وقتك حق قدره »

كل دقيقة من حياتك هي فرصة لجر مغنم او لدفع شر او لربح اجر ٠ ان دقائق العمر دنانير رنانة ٠ فلا تصرفها فيما لا نفع منهُ ولا تكن كمن دفن الوزنة تحت التراب واذا جاء سيده يحاسبه عليها قال له : هذه هي وزنتك فتسلمها

بل تدبر يا تعاس كيف تستفيد منها واياك ان تصرفها فيما سوف تندم عليه

٠٠٠

هذه هي نصائحي لك ان عملت بها فزت في معترك هذه الحياة وحزت على الجزاء في الدنيا.

ولكن افضل النصائح هي «عظ نفسك فمن لا يعظ نفسه كانت عنه المواعظ»

فكر فيما قلت عسى ان تجد فيه خيراً والسلام


اوراق الخریف

اوراق الخريف

نثر الخريف على الثرى اوراقهُ
فتناثرت كتناثر العبرات
يتركنَ اغصاناً ألفنَ عناقها
ويقعنَ فوق الارض مضطربات
تلهو بهنَّ يد الهواء هنيهةً
وتعود تجمعهنَّ بعد شتات
فكأنهنَّ اذا خفقنَ جوانحي
وحفيفهنَّ كأنه زفراتي
زفرات مصدور تقارب يومه
لحياتهُ معدودة الساعات

. . .

وجم الطبيبُ وقد تبيّنَ داءه
ومضى يخاف تساؤل اللحظات
هيهات ما كتم الطبيب فإنه
باد بعين الام والاخوات
يمسحنَ دمع العين عند عيادتي
وارى خطوط الدمع في الوجنات

...

لا تمسكي يا ام دمعك واسكبي
فالنفس قد بلغت الى اللهوات
وتناثري يا خافقات في الهوا
فحياتكنَّ قصيرة كحياتي

...

اني رميت على الطريق يراعتي
وتلهّبت في مهجتي نفثاتي
ونهضتُ انشد في الصباح قصائدي
فاذا الصباح يغوص في العتمات
وأصخت للاطيار اسمعُ شدوها
فاذا الطيور سكتنَ مكتئبات

واذا الطبيعة وجهها متقطب
عَرِيَت من الازهار والبسمات
رفعت غصونَ الدوح نحو سمائها
كذراع قسيس جثا لصلاة

...

يا غاب كم من فكرة قد لجلجت
في الصدر تحت ظلالك العطرات
رسم الرجاء خطوطها ببهائه
ومشى الشباب يؤمّها بثبات
وبدا المنون فاجفلت كغزالة
سمعت رنين القوس في الفلوات
مالي اردد ذكرها وجمالها
والذكرُ يبعث كامن الحسرات

...

إني اتيت الى القبور ازورُها
لارى مقر شبيبتي ورفاتي
فوقفت انظر لا ارى الا الردى
حولي والا القبرَ من جنباتي

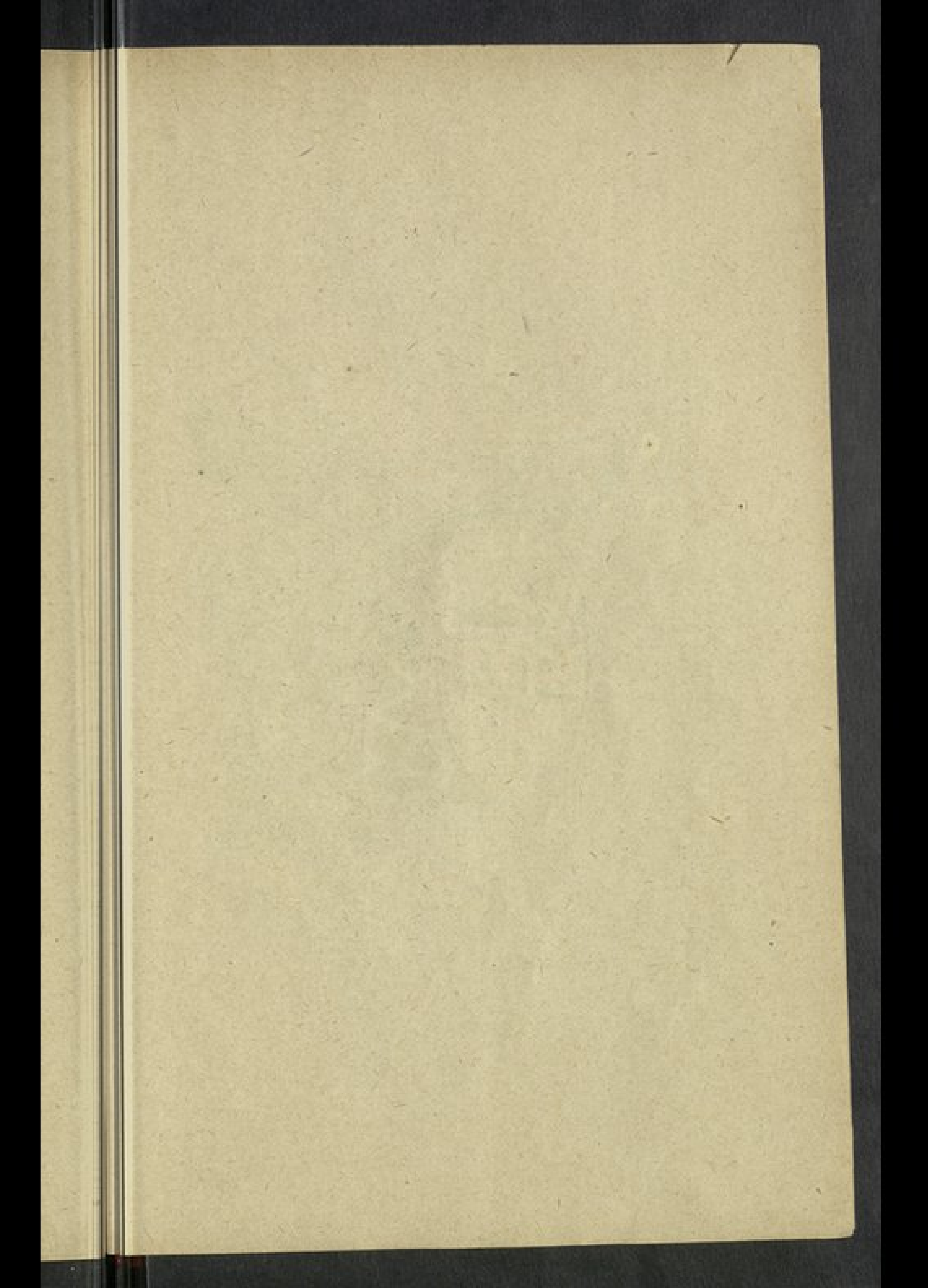
والسروُ ملتفع بثوب حداده
والصمتُ منتشر على الاموات
وعلى الثرى الاوراق يشبه نثرُها
آمالَ هذا العمر منتثرات

...

يا صاحبي اذا قضيت فكفنا
جسدي النحيل بتلكمُ الورقات
انَّ الخريف رمى اصول حياتنا
بالموت عند تساقط القطرات




بعض
الجرائد
عزت



أصدر جريدة

جاءني تعاس متأففاً كعادته يذم دهره واهله ويقول : (ضاقت)
فقلت له ما بالك ؟ ألم تجد من عملٍ بعد ؟
فهز كتفيه واشار برأسه ان : لا
فقلت له : أصدر جريدة . فنظر اليَّ نظرة المستغرب كأنه يريد : انت مازح !

— لا وحقك يا تعاس لست مازحاً . اصدر جريدة فهي اقرب ما يتناوله المتناول اذا بعدت عنه سبل العمل في هذه البلاد

— أترى رأسي رأس صحافي . أتحسب ان لدي من العلم مايؤهلني لهذه المهنة الشريفة التي تتطلب من الاطلاع والمعرفة في الامور السياسية والادبية ما لم احلم به الى الان

اذا لم يكن عندك اليوم من عمل غير الضحك فاطلبه من غير هذا الباب او كما تقول العامة : خيّط بغير هذه المسلة

ــ لا . لا ايها الصديق اني انصحك لوجه الله ولم يخطر في قلبي الضحك كما تقول اما ما ذكرت من لوازم الصحافة من العلم والمعرفة والاطلاع والسياسة والادب وغير ذلك فما هذه الا كلمات

تستغني عنها بالشيء اليسير — اظن انك تقرأ وتكتب
— قليلاً

— اذن تعمد من وقت الى اخر الى قلمك وتخط بعض الفاظ متتابعات متناسقات وتملأ على هذه الطريقة عموداً او اثنين من صدر الجريدة . ولا حاجة لك في ان تكتب كتابة مفهومة او معقولة بل ارم الكلام على عواهنه من غير ما ترتيب ولا تركيب . واكثر من الالفاظ (الهيئة الاجتماعية) (والمحيط الادبي) و (الحرية) و (الاستقلال) و (النهضة) و . . . الى اخر ما هنالك من الالفاظ الطنانة الرنانة . هذا فيما يختص بالمقالات الادارية اي الصادرة عن ادارة الجريدة . اما فيما يختص بالسياسة فاشتر لك مقصاً وبادل او اشترك في بعض الجرائد المصرية والاميركية والفرنساوية اذا شئت واعمل فيها المقص . وعلى هذه الطريقة يتسع نطاق عملك وتتمكن من اصدار جريدة ذات اربع صفحات

— بارك الله فيك ! والمال اللازم . والمشتركون . والاشياء المادية كيف الوصول اليها ؟

— اما شأن المشتركين فذلك امر سهل قريب . اما لك اصحاب ؟ لا غرو فانهم كثيرون لانك من مدة لم تأت عملاً فتكون على الاقل عقدت صداقات مع جم غفير . فاذا صدرت جريدتك احملها الى هؤلاء الاصحاب ولا اخالهم يرفضونها لخمس او ست ليرات ويخسرون مودتك وصحبتك ويتعرضون للسانك . ولا يخفاك ان لسان الصحافي ذو حدين يقطع من الجانبين لحذار ان لا تستعمله فمن ورائه رزق ومنفعة فاذا جاءك من يريد قدحاً او

ذماً فبعه ذلك بيعاً

وللجريدة موارد اخرى ستعرفها متى درست المهنة درساً متقناً

ـ عجيب في امرك يا رجل اتحسب ان جريدتي فاترة ولاحزب وراءها ولا هي تدافع عن مبدا ولا تصدر لغاية معلومة

ـ كيف لا تصدر لغاية معلومة وهي تصدر لاملاء جيبك وإشغالك واضجار الناس والتثقيل عليهم

ـ لله ابوك انا افضل الموت على اصدار مثل هذه الجريدة . اتظن ان ليس في البلاد من تلك الجرائد الصفراء عدد كاف حتى اضيف عليها . . .

وقام تعاس وطرق الباب وراءه وولى . . .



فحص الصحافيين

قرأت في احدى الجرائد كلاماً يحط من شأن الصحافيين في بلادنا ـ بعض الصحافيين ـ ويدعوهم الى تقديم فحص في قواعد اللغة العربية . وزاد احدهم ان طلب منهم ان يكونوا علماء فلاسفة نوابغ . فرأيت من الغلو بل من العار ان يقف هؤلاء الافاضل الكرام امام الفاحصين كما يقف الصبية الصغار . وفيهم الشيخ الجليل الذي بيضت التجاريب رأسه وسودت الهموم قلبه . وفيهم الفتى

الغر الذي لا ينظر اليك الا شزراً ولا يكلمك الا تنازلاً . فهل يحسن بمن كانت هذه صفاته ان يؤدي فحصاً على معارف لا يأبه لها ولا يراها تصلح الا لاولاد المقاعد المدرسية ؟!

أتريدون ان يميز الصحافي بين الفاعل والمفعول وبين زيد وعمر وهو ماسك على ناصية سياسة البلاد يديرها كما يشاء . هو عارف خبير بمجاري السياسة الخارجية والداخلية حتى انه لا يجهل ان باريس في فرنسة وان لندن في بريطانيا . وهل يطلب منه اكثر من ذلك في عاصمة لبنان . أترجون ان يأتيكم بجرائد كالتيمس والطان او ان يملأها بمباحث تهم البلاد وتلذ الشعب وتنير الافكار . اما يكفي ان (يطلس) اول صفحة من جريدته بتعريب مقالة — واي تعريب — عن سياسة الانكليز ومساوئ اليونان وبلشفية الروس

لعمر الحق انه ليأتي بما يقدر عليه ولا لوم

ولكنَّ هناك اموراً يجب الا نغضي عليها الجفن وهي من الاهمية بمكان . نخص بالذكر منها ما يأتي :

اولاً : حتى تكون الجريدة حرة « جريئة » يجب ان تعتمد على نفسها في جميع امورها ومصاريفها حتى انه لا يحق لها في بدء صدورها ان تتكل على المشتركين فعليها والحالة هذه ان تكون مستندة الى مال وافر لا تحتاج معه الى اعانة ولا الى مساعدة

وانا لسوء الحظ نرى الكثير من الصحافيين اذا ارادوا اصدار جريدة اولُ ما يدور في خلدهم ان يسألوا الحكومة اسعافاً . وماقولك في جريدة انشئت لمراقبة اعمال الحكومة وانتقادها وارشادها تأخذ من الحكومة اسعافاً ! فهل تستطيع مع ذلك القيام بواجبها وابداء

رأيها بجرأة وضمير حيّ ؟

ثم ان الحكومة اذا ساعدت الجريدة تضر بصاحبها . وكأنها تقول له : اتكل عليَّ ولا تتكل على حسن ادارة الجريدة وجودة تحريرها . وهكذا « لا يصدّق » صاحب الجريدة ان يملأها حبراً حتى يتناول غصاه ويؤم قهوة اوينصرف الى غرض لادخل للجريدة فيه

ثانياً : ان من الجرائد ما خلق لتجارة سافلة لا تهتدي سياستها الا بنجم الدينار . فأنّى طلع ذلك النجم اتجهت وجهته واتبعته حتى اذا بدا لها نجمٌ انور مالت اليه . فترى هذه الجرائد مشحونة طعناً وسباباً ببعض من تأمل منهم دفعة مال يشترون بها شتائمها

مثل هذه الصحائف سوق عمومية او مسرح . كل من اراد الدخول اليه دفع رسماً ولا ترفض ادارته احداً . لا فرق بين سكير ولص (وازعر) على شريطة ان يدفع الرسم الموضوع

فاذا شاء احدهم الانتقام من آخر انتقاماً شخصياً لا دخل للخير فيه ولا للسياسة ادى لصاحب الجريدة فلساً فشفى غليله وقضى حاجة في نفســه فهذه الجرائد التي لا تسعى وراء خير ولا تخدم مبدأ ولا همّ لها سوى جيوب اصحابها . عار على البلاد ــ والجرائد عنوان البلاد ــ يجب مصادرتها وحملها على اقفال بابها بنفسها

ثالثاً : وقد يكون بين اصحاب الجرائد من يجب ان يُفحص فحصاً طبياً لا نحوياً وان يُرسل الى (العصفورية) لا الى المدارس وربما لا لوم على نياته ومقاصده انما اللوم على عقله . فاذا رأى حماراً صوره له عقله جملاً وكتب في جريدته انه رأى جملاً فمثل هذا شر على البلاد يضلل الشعب الساذج وهو يعتقد انه نور الهدى

والعهدة على الراوي

يعجبني من بعض الصحف قولها ـ والعهدة على الراوي ـ يضعونها بين خطين متساويين يتنصلون بها من كل تبعة ومسؤولية كأنها هناك غاية ما يطلب منهم . يغسلون ايديهم مما ينشرون من الاخبار فاسدةً كانت او صالحة ، صادقة او كاذبة

ومن هو هذا الراوي الذي تسوّر عليه بعض الصحف بخطين تتخذهما له ستاراً تحجبه بها عن عيون الناس وتحجب بهما ما في روايته من تلفيق او تغرير

اني ما قرأت تلك الجملة الا انتصب امامي امثلة كثيرة من الرواة بينهم الغث والسمين

فمنهم من كانت تسند اليهم الاحاديث جدتي في قصص واخبار يلعب فيها الجن دوراً هاماً . فهؤلاء الرواة كنت اتصورهم بثياب سود يجمعون اطرافها بيديهم على صدورهم ولا يُبرزون من تحتها الا وجهاً شاحباً بعينين براقتين تنيران لهم الطريق . وكنت اعجب من هؤلاء الرواة واخشى بطشهم وسطوتهم لاختلاطهم بالانس والجن . ومن الرواة من قص رواية عليّ الزيبق ورواية عنترة وقصة بني هلال . . . وليس من يجهل كم عند هؤلاء من الامانة في سرد الحوادث واثباتها وكم لهم من المقدرة التاريخية والاسانيد التي لاتنكر ! فاذا كان

رواة اليوم مثل رواتنا الاقدمين فبشر الحقيقة والتاريخ وقل لهما انكما حظيتما بضالتكما المنشودة

يكون الصحافي جالسا على مكتبه جامعاً دماغه بين يديه يتمخض بمقالة رنانة فيدخل عليه احدهم ويقول له : كيت وكيت فينظر اليه الصحافي ويقلب شفتيه شاكا بحديثه ثم يقول في نفسه : قد يكون صادقا . ويضرب على يراعه ويكتب الجملة المكرسة لمثل هذه الاخبار : بلغنا — والعهدة على الراوي . وهلمَّ جراً . . ويجره حديثاً طويلا قد لا يكون فيه شيء من الصدق

وهكذا يغرر الرأي العام غير مكترث بما عليه من التبعة والمسؤولية

أليس الاحرى بالجرائد ان تتحرى الاخبار الصادقة وتتثبت صحتها قبل نشرها وتسعى وراءها لا تنتظر قدوم فلان وفلان ليقص عليها ما قد يكون له غرض من قصه فان اتكالهم على « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » لا يجديهم كبير فائدة

وهناك امر لا بد للجرائد من الانتباه اليه وهو انه اذا تكاثرت الأخبار الكاذبة المستقاة من الرواة — وان تكن على عهدتهم فلا تلبث ان تحط من قدر الجريدة المنشورة فيها وتقلل من منزلتها لدى اولياء الامر وتضيع ثقة الشعب بها

وكم هناك من خبر تسرع كاتبه في ارساله فكان له بعد ذلك غصة في حلقومه ودّ لو ارجعه الى عالم الغيب ولو كلفه الامر مشقةً وجهداً

وقائل يقول : وكيف تملأ جرائدنا اعمدتها وهي كثيرة جداً تستقي من مورد واحد وكيف تفوق الواحدة اخواتها ان لم تسبق الى نشر ما لم تنشره تلك

فاقول لهذا : ان جرائد بيروت لما رأت انها تعددت وزادت عما تحتمله البلد وان اكثرها يرمي الى غاية واحدة قصد بعضها ان يتوحد ويؤلف شركة مساهمة تُصدر جريدة واحدة وتهمل الجرائد الاخرى التي من رأيها . وعلى هذا تقوى تلك الجريدة ويمكنها ان تأخذ لها مركزاً معتبراً لدى الشعب ولدى الحكومة وتستقي الاخبار من مصادرها ...

نسيت ايها القارئ العزيز ان اقول لك ان هذا الخبر هو على عهدة الراوي ... طبعاً

في مجرى النهر

لبعض الجرائد عمر قصير . هي كالغريق في مجرى النهر تتدلى من فوقه اغصان الصفصاف . يتناول الغصن منها فيقاوم به التيار هنيهة ثم ينقصف الغصن فتحمله المياه الى ان يأخذ الغريق بغصن آخر ولا يزال من غصن الى غصن حتى تأتي ساعة يفقد فيها قواه وتخور عزيمته فينقلب عليه الماء فيغوص في اللجة

ان لم تكن الصحافة معتمدة على نفسها . مستقلة في مبادئها قديرة على القيام باعمالها تعرف ما تقصد وما تريد . فمهما ابتدعت من ضروب المقويات ، ومهما التجأت الى التبخير طوراً والى القدح تارةً لقاء جُعل يجذبها اليه كما يجذب المغنطيس الحديد . فانها هالكة لا محالة

هذه الوريقات لا تضر نفسها فحسب . بل انها عبء على الصحافة كلها . عبء على القراء وعلى البلاد فمقاطعتها خير ومناصرتها شر

اذا كان الشعب يرغب في ان يكون له صحافة تنطق بلسانه . وتبدي افكاره وآراءه فعليه ان يقلل الصحف ويحسنها فالجودة في مثل هذا خيرٌ من العدد

تدخل من النافذة

كثرت الجرائد وانتشرت حتى لتراها في كل مكان وكلّ زمان . التاجر في حانوته . والعامل في معمله . والرجل الشيخ الهرم امام موقده . والفتاة في غرفتها كلهم يقرأون الجرائد . والجرائد تنهالّ عليهم من كل صوب وحدب وطنيةً تارةً . واجنبية اخرى . ولا سبيل الى الفرار منها . فان اوصدتَ دونها الباب دخلت من النافذة اوتساقطت عليك من حيث لا تدري

وفي بلادنا السورية وجبالنا اللبنانية عائلات ربيت على الفضيلة والاداب السامية حفظت في قلبها كنز عفة اللسان والاعمال وذلك فخرها

فارى من واجب الصحافة الا تحمل بين طياتها الا ما كان لذةً او فائدة وتترك جانباً ما كان سماً ناقعاً يتسرب الى كثير من الاجسام السليمة الطاهرة

هذه تبعة كبرى قد تنوء بها ظهور بعض الصحافيين ولكن قل منهم من يفهم بقلبه و كثر من يفهم بجيبه

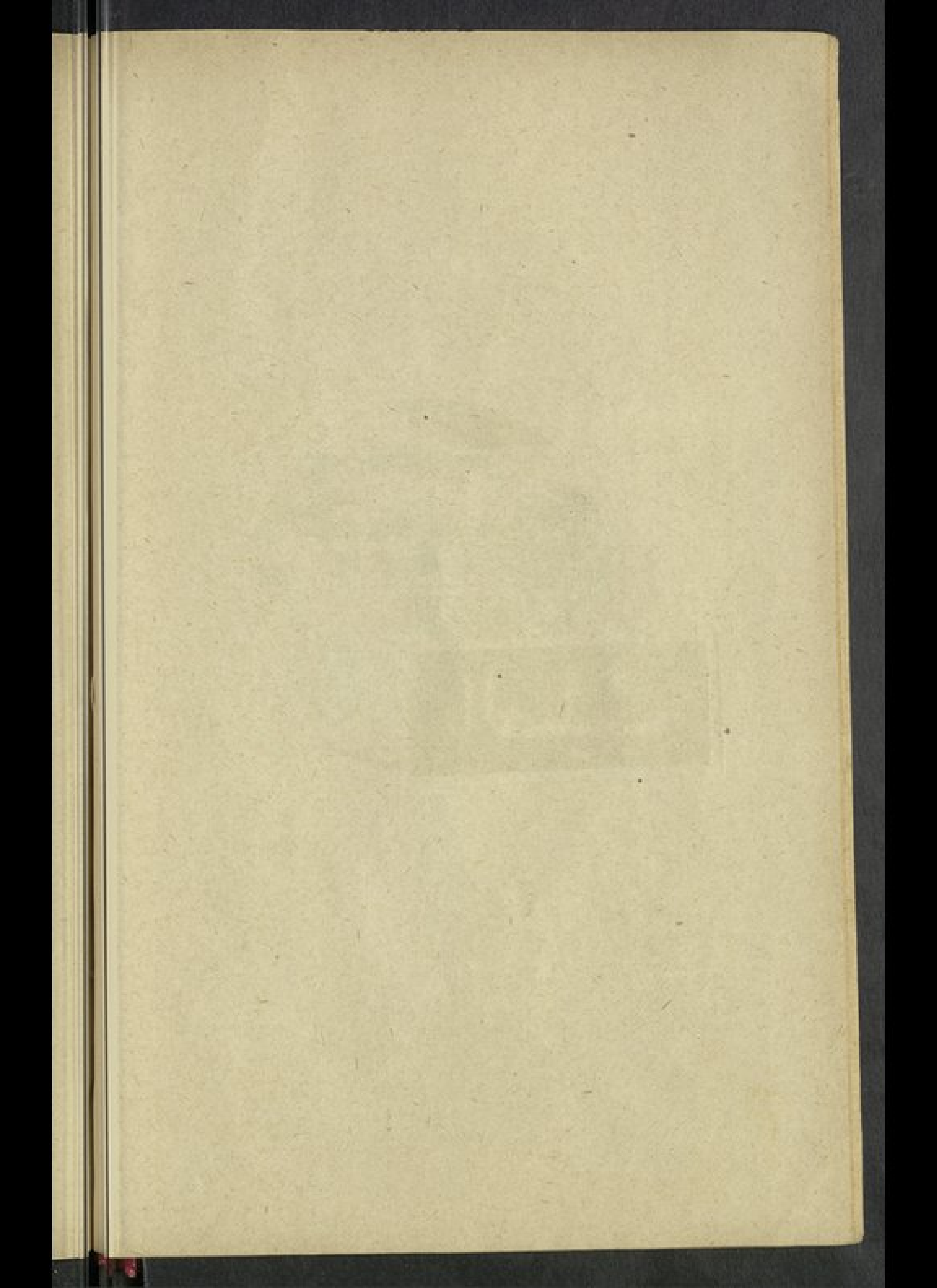
ما افرغها

لا اتمالك عند تناولي بعض الجرائد عن القول: ما افرغها ! ما افرغها ! ليس فيها ما يستوقف النظر . ولا مايشغل الفكر . اخبار اكل الدهر عليها وشرب . وآراء سقيمة . ورقع قصت من اثواب الجرائد الاخرى فهي متقلقلة في اماكنها . غريبة عن مواطنها لو تمكنت لنفرت نفور الغزال وتركت مكانها بياضاً

اهم ما في هذه الجرائد اعلاناتها !




الصليب



ايها الصليب

رفعوك شارة للعار . وآلة للذل والعذاب

نصبوك بين استهزاء الجموع . وغضب الشيوخ . وفظاظة الجنود

جعلوا الجلجلة كرسيك لتشاهد المدينة رُأْك

يمد الشعب اليك جمع يديه وينطق الحقد في ناظريه وصراخه قد ملأ الفضاء :

ارفعوه . ارفعوه عالياً ليرى العالم هذه الخشبة الملطخة بالدماء .

انظروا اليه يا ابناء الارض . فقد تمر العاصفة وتقتلعه وتلقي به الى الحضيض وتاتي السيول وتحتمله الى الوادي

قد فتح ذراعيه على صفحات الفضاء . وبان في الافق كشجرة سقطت عليها الصاعقة . انما سيغشاه الليل بسدوله ويكتنفه بظلامه فلا يبدو . وما هي الا ليلة وضحاها حتى تنتزعه الايام من ذاكرة الانام وتصبح هذه الخشبة نسياً منسياً . . .

أخفتوا من اصواتكم ايها الصاخبون وأرجعوا الى صدوركم ما تنفثون .

استروا وجوهكم بفضلات ذيولكم واطلبوا لكم ملجأ

افسحوا مجالاً . فان في سفح الجبل اناسا محتشدين رؤوسهم في ايديهم من الخوف وقلوبهم ترتجف آملة بالعزاء . قد حفوا بالجبل يسحبون عليه نفوسهم سحباً ويرقون رويدا رويدا . كارتفاع الامواج عند امتداد البحار . انينهم كصلاة ودموعهم ككفارة عن آثامهم

افسحوا مجالاً للبائسين والحزانى . لابناء الشقاء والمثقلين بالمتاعب ان العالم بأسره حمل صليبه ومشى

ونظر الى الافق فاذا نور ساطع مزق بهاره ظلمة الدياجي فاشرق به الكون والفضاء . وامتدت انواره الى حبات القلوب فاهتزت وارتجفت بين اضلاعها ثم هللت وابتهجت وامتدت اليها حرارة الصليب فنفضت خمولها وانبعثت من سباتها

قد رفع الصليب في الفضاء فكان الحد الفاصل بين غابر العصور وعصر الرحمة والنور . سطع نوره فخفي ما دونه واشرق على عالم جديد

ايها الضاحكون امام الصليب ضموا اذانكم وامسكوا على قلوبكم بايديكم فانها واجبة خائفة . الا تسمعون حفيف اجنحة الملائكة حول جذعه المقدس . الم يأخذ ابصاركم بريق لمعانه . ضعوا اكفكم على نواظركم واطلبوا الراحة في الانفاق والدهاليز

رفعتم مناراً بايديكم . رفعتموه عالياً ليرى العالم ذله . فاذا الارض واقطارها كشعلة من نار تلتهمها انواره

كل رابية جلجلة وعلى كل رابية صليب

قام عظماء الارض وملوكها . حشدوا جنودهم وصقلوا سلاحهم ومشوا يقتلعون الصلبان . اخذوا المشاعل وطافوا في مجاهل الارض

ومعالمها يحرقون خشبة الصليب .

فكانوا كلما اقتلعوا صليباً نبتت الالوف . و كلما قربوا ناراً مالت السنتها اليهم فالتهمت وجوههم فرموا آلة حربهم ووقفوا حائرين لا يدرون ما يصنعون

واذا بالصليب مرتسم في الفضاء . فرفعوا ايديهم اليه وخروا ساجدين ثم نهضوا يهتدون به فكانوا كلما نظروا اليه مشوا . وكلما زاغت ابصارهم احتشد الشقاء في قلوبهم والظلام في عيونهم

مرت العواصف وهبت الاعاصير فزلزلت الارضُ وسقطت الاسوار وهوت العروش وتدحرجت التيجان وقام على انقاضها ممالك لم تلبث ان صفعتها يد العوادي فبادت وخلفتها ممالك أخرى . والصليب على قمة الجبل باسط ذراعي الرحمة والحب . تمر الزوابع دونه ولا تمس الرياح كرسيه

أمم ولت وأمم ظهرت واصبحت الارض مدافن . والصليب خشبة الذل والعار منتصب فوق تلك المدافن

. . . . .

ايها الصليب المقدس
قد ملكت العالم وبسطت ذراعيك فوق كل مكان
قد فتحت البلدان بالرحمة والعزاء لا بالجيوش والسلاح
كم من نفس جاثمة حول جذعك . وكم من دموع منسكبة بين يديك .
كم من بائس وحزين يأتي اليك ليسند رأسه حيث اسندت رأسها ام البائسين
كم من المعابد التي رفعتَ عليها وكم من المعاهد التي زينتَ صدورها
في اكواخ الفقراء . وفي قصور الاغنياء . . في اعناق العذارى وعلى

تيجان الملوك . على مكاتب الفلاسفة وفي حقول الفلاحين . على صدور العلماء وفي مخادع الجهال . في القرى الحقيرة وفي المدن العظيمة في مجاهل الاقطار وعلى غوارب الامواج في البحار . لا تنفتح العين الا وتكتحل بانوارك الساطعة ولا تجف القلوب الا وترتشف من ينابيع رحمتك الواسعة

المتكبرون يحولون انظارهم عنك . والجشعون يصمون آذانهم عن ذكرك

ولكن اين المفر من صليب الشقاء . الا ترى المرء يخلق وصليبه على عاتقه فلا يزال يكبو وينهض حتى يكبو كبوة لا انتعاش بعدها

اما انت ايها الصليب فمن يلتجئ اليك فلا يهوي . ومن يضعك على كتفه فلا يسقط

انت شارة الحب

انت شارة التواضع

انت شارة العزاء

كالطير قد كسر الرماة جناحه	فهوى يئن وقد تخضب بالدم
ويهم بالطيران الا انه	ان قام يدركه العياء فيرتمي
جثت البرية حول جذعك والاسى	قد شق مهجتها بنهشه أرقم
ترنو اليك ولحظها متكلم	بعظيم شقوتها ولم تتكلم
فارحم فانك قد رفعت لرحمة	وأنر بحبك كل قلب مظلم
وهب العزاء لكل قلب بائس	ذرف الدموع مع «البتولة مريم»



تحت عبء الصليب

ما دببت حتى دب الاسى في جوانحي، وداهمني الهم يكتنفني ، فضاق صدر الفتي وحنى الرأس حزيناً وما مشى بين جدران المدارس حتى شعر بعبء يثقل على عاتقه فمد يده الى جبينه فاذا بها تلمس غضوضاً قد خطتها الكآبة واذا قلبه ينتفض تذمراً :

أَخُصِصتُ بالاسى من دون الانام، ام خلق هذا الفؤاد هدفاً للاحزان؟عيون تبرق فيها حولي ، ووجوه تضحك ، وشعور ذهبية يداعبها النسيم وينشرها على اكتاف صبية صغار يتراكضون فرحين جذلين

— قف ! فلرب ابتسامة تستر هماً ولرب ضحكة تحجب غماً

حدد النظر الى حبات القلوب واقرأ في اعماق اللواحظ . فانك لا شك واجد تحت تلك الظواهر اللماعة، تحت اشعة الشمس الخالبة اسدال ظلام نصبتها الاوهام الكاذبة ونسجتها الافكار الخادعة

ان اولئك الصبية على ما هم عليه من الحداثة يقوسون الظهور تحت صلبان صغيرة لا تبدو الا للرقيب الحاذق ولا يكشف عنها الا

ذو النظر الصادق

ان المرء يصون عن الناس حقيقة حاله ويجهد نفسه في ان يظهر لهم اكثر منهم سعادة واوفر حظاً — وساوس يدسها الشيطان في اعماق الصدور — ولذا ترى الناس يعيشون متقاربين متباعدين قل ان يفهم الرفيق حقيقة رفيقه وقد يراه ضاحكاً فيزيد شقاوه ويكثر بلاوه

انزع تلك العصابة عن عينيك ايها القلب الكئيب فان الصلبان قد ملأت ما حولك وان الناس يسيرون تحتها كما تسير الجنود تحت البنادق . سر مع السائرين يخف على عاتقك صليبك

. . . . .

اذا كانت المدارس ملأى بالهموم فكيف بالعالم المضطرب المائج كأنه زوبعة هائلة تدور على نفسها وتأتكل ائتكالاً . بركان يقذف بالحمم وينتشر لهيبه على الكون فلا من ينجو من لسعاته ولا من يرفع رأسه امام السنته المحرقة

في الاكواخ الحقيرة وفي القصور الشاهقة ترى الصلبان تنصب عظيمة سوداء تبسط ذراعيها تسد بهما الافق عن الحاظ الناظرين

تفاوت الناس غنىً وتساووا شقاء فليس من مفلت من ضريبة البؤس والهموم ولو رفع من دونها سداً من ذهب او كوّر على نفسه قبة من الماس والحجارة الكريمة

الغني يحني ظهره تحت ضريبة الشقاء وقد تكون على عاتقه اثقل مما هي على عاتق الفقير المسكين الذي يضطرب في الشوارع يتسول

من المارة ويستعطي قوت يومه

أنى ادرت لحاظك في هذا الكون لا ترَ الا من وسمه البؤس بميسمه. وخط على جبينه انه من ابنائه. وكم سودت الحرب من ثوب واراقت من دمع وكم من غني وقف امام قبر وحيده لا يغنيه عنه ماله وما جمع ولا يرده الى الحياة ما اساغه لها الطمع من مال فقير او رزق ارملة لا معين لها ولا مجير

. . . . .

ارتدع يا قلبي عن قنوطك وهدئ روعك واعتبر بما يحف بك من البؤس والشقاء. ترَ نفسك سعيداً. سر مع القوم يخف حمل صليبك على عاتقك لا تغمض عينك. ولا تنزو على نفسك ولا تجلس وحيداً منفرداً. تصفح الكون صفحة صفحة وانظر اليه من علُ فلا تكتحل عينك الا بمشاهد المصائب وشارات الهموم. غني صليبه غناه وفقير يتضور جوعاً. سليم فقير يحسد غنياً مريضاً فيكون مريضاً في سلامته وغني مريض يحسد فقيراً سليماً فيكون فقيراً في غناه

تصور البؤس في المستشفيات والشوارع. ادخل الى اكواخ البائسين وانظر الى تلك الاعضاء الشاحبة والوجوه الصفراء والعيون الغائرة

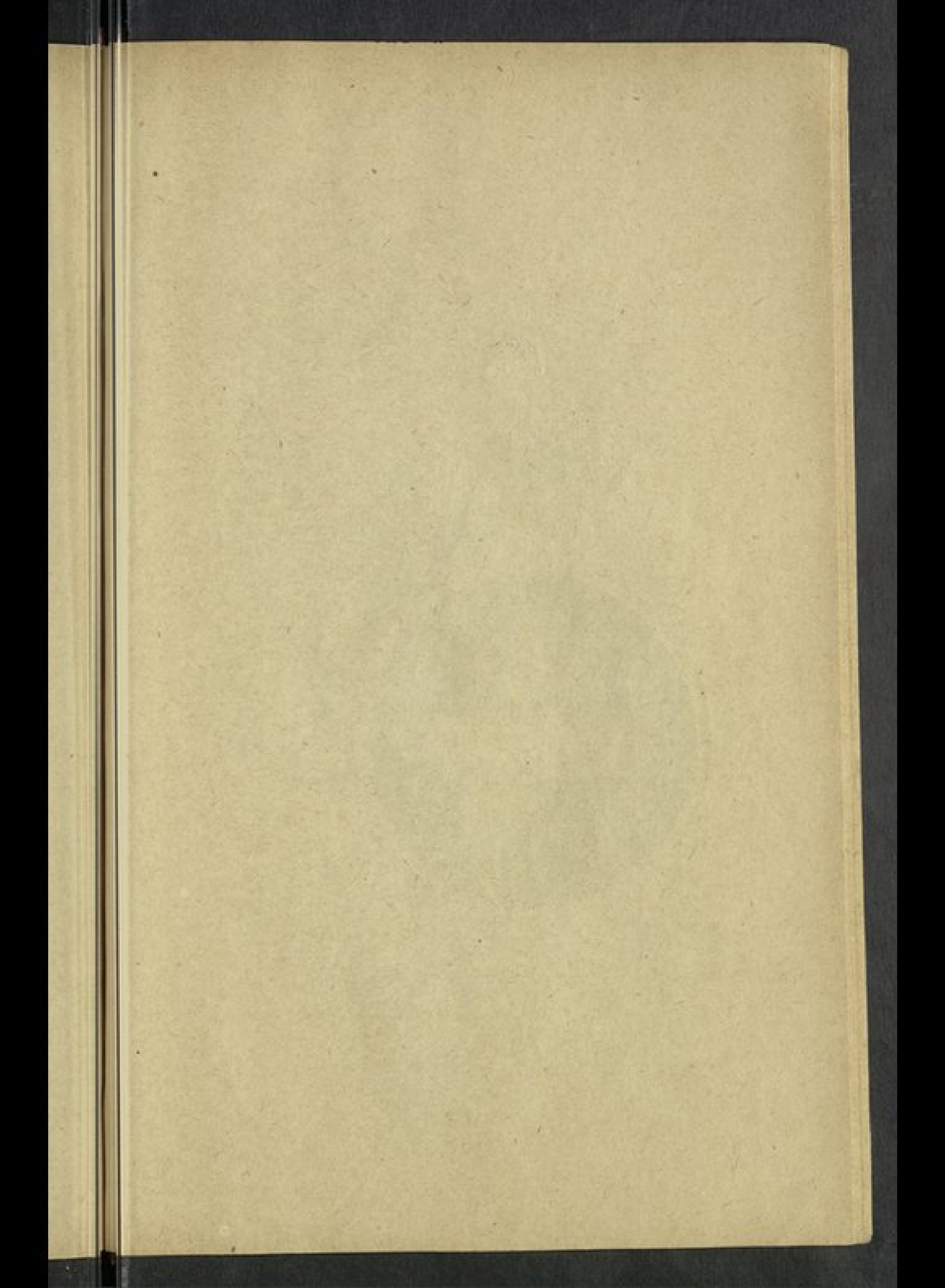
هذه وادي الدموع — هذه معترك العذاب — لا يسير المرء خطوة الا ويعترضه صليب او يرن في اذنه صوت النحيب

ولكن لو ادركت يا فؤادي لاتخذت من عذابك لذة وقلبت همومك الى مسرة. لعرفت ان البؤس مطهرة وانها شريعة الله في عباده

ان الله نصب امامنا هذه الجلجلة وقال اصعدوا الى قمتها فتاخر عنها كثيرون وخارت قوى كثيرين في اول مرتقاها فجاء المسيح ومشى امام الجمع المتألم. اكليل الشوك على رأسه والدماء تسيل من جروحه وصليبه على كتفه والسوط ياخذه ويدعه وهو يسير محتملا صابراً يعثر تارة وينهض اخرى وضحك الهازئين ولعنات اللاعنين تدوي في اذنيه وهو لا يبدي تذمراً ولا يرمي صليبه ثائراً . فمهما ثقل صليبك ياقلبي فاني هو من صليب المسيح. قل في نفسك انه خشبة من ذلك الصليب المقدس يخف على عاتقك وتشعر بلذة غريبة في حمله وسيرك وراء من قال : تعالوا اليّ ياجميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم




بعضهم
عزت



متنفذ

أترى هذ الرجل، هذا الرجل الذي يسير رافعاً رأسه شامخاً بانفه فاتحاً صدره يدفع المارة بمنكبيه ويلتفت اليهم باسماً، باسماً ابتسامة خفية يشعرهم بها بعلو مرتبته ويمن عليهم بتلطفه وتنازله. يرد تحيتهم باشارة من رأسه او يده.

لاتلمه فان مركزه يتطلب منه هذه الرفعه وهذا الشمم «فانه متنفذ».

متنفذ، اي انه من عداد النفر القليل الذين سكب الله عليهم رحمته وجللهم برضوانه، الذين لهم روحاتهم وغدواتهم الى اولي الامر، الذين لايلقون باباً موصداً ولا ممراً ممنوعاً، الذين يقف لهم الحجاب ويكادون يلقون عليهم التحية العسكرية... على مايقولون

لاتلمه اذا رأيته وسلمت عليه فلم يجب. فانه قد يكون مشتغلاً بحل بعض المشاكل الوطنية او انه يَعدّ خطاباً ليلقيه بين يدي الحاكم او المندوب السامي. ولا يخف عليك انه مدعو لتناول العشاء على مائدة احدهما او انه مدعو لاعطاء رأيه في مسألة حيوية

وكيف تجهل هذا؟ الم يقله لك بعد؟

انه ما لقي احداً في الطريق الا اسرَّ اليه هذا الخبر، هذا الخبر الذي يتوقف عليه صلاح البلاد ونجاحها

هذا هو المتنفذ. هذا هو السيار الاكبر الذي تدور في فلكه بقية المتحركات. هو محورها تحيط به، يجذبها اليه. توازُنها قائم باستقامة حركته. فكم من قرية في الجبل تنقلب راساً على عقب لكلمة ينطق بها فمه. في يده الحل والربط

الم يقل لك ذلك؟

الم تسمعه مرات كثيرة ينادي حتى في الاسواق: قد عينت فلاناً وعزلت فلاناً

الم تسمع بعض حديثه للملتجئين اليه: كن براحة بال اني اسعى لك فيما تريد. كلمة واحدة مني تكفي. انا لا اعرف فلاناً ولكني اكراماً لخاطرك اجتهد لانجاحه

وهلم جراً جراً طويلا... يجر به كل الحكام والموظفين والاعيان بحبل ارادته، يحركهم كما يشاء

هو المتنفذ، الا ترى القرية عند قدومه اليها مجتمعة على ممره تحييه وتقدم له الخضوع والطاعة... والهدايا ايضاً

هو المتنفذ يصيح على رؤوس الملا انه نال ما نال لثقة الحكام بنزاهته وطهارة ذيله

ولكن لا تحدق كثيراً في طهارة ذيله فلربما ترى عليه بعض الوسخ الذي يحاول ستره بثنايا ثوبه

من المتنفذين نفر نجلهم ونكرمهم ولهم في اعتبارنا المنزلة الاولى

وهؤلاء لا يُشعرون الناس حتى بوجودهم . هؤلاء يخدمون الوطن سرا . لا يسعون وراء غاية وليس لهم من قصد سوى الخير والصلاح
ولكن المتنفذين الذين يتاجرون بتنفذهم هم غضب الله وشر الشرور على البلاد . . يجب ان يفتح اصحاب النهي والامر عيونهم عليهم خوف ان يحطوا من كرامة الحكومة و يخلوا بهيبتها .
يجب ان يخاف الشعب من مثل هؤلاء ويتجنبهم لانهم خطر عليه يقودونه الى ما لا يريد ويدفعون به الى مهاوي الهلاك
هؤلاء المتنفذون الكثيرو الجلبة والضجة هم كالطبل المعلق في اغصان الشجرة كلما هبت الريح سمع له صوت عظيم
ولكنه افرغ من فؤاد ام موسى



الوطني المتطرف

تكلمت يوماً في مجلس عن المتفرنجين فصادف كلامي صدى في قلب « الوطني المتطرف » فجاء يشكر لي ويمتدح . فقلت في نفسي ان هذا الرجل سينسب اليَّ ما ليس مني فيعيرني افكاره واقواله وانا لا احب المتطرفين فقلت له :

— يا صديقي فليحي الوطن وليسقط المتفرنجون

قال — فليسقط المتفرنجون والاجانب معه . الوطن لاهله . فما لهؤلاء الاغراب ياتون الى بلادنا يستبدون بنا . يستولون على تجارتنا ومرافق معاشنا !

ومشى في الحديث متهوساً متحمساً واحمر وجهه وتنفخت رقبته حتى ضاقت بها « القبة الافرنجية » وما تمالك اخيرا الا ان وقف ووضع يده على خصره ورفع راسه وهزه قائلاً : انا وطني ويجب علينا ان نتملص من الاجانب . وان نلقي بهم الى عرض البحر

فقلت له — انت وطني . هذا لاشك فيه . وانا وطني ايضاً

واحب الوطن حباً جماً ولكن بربك قل لي. على اي شيء تركز الوطنية

فاجاب: الوطنية هي ان نخدم الوطن بكل قوانا مادياً وادبياً. هي ان نعارض كل فكرة اجنبية وان نصادر كل حاصلات الاجانب من بضائع والات ونرجع الى مصنوعات بلادنا. الخ.

قلت: — كلامك من ذهب ايها العزيز فما اغناك عن رفع الصوت واتعاب نفسك. اعمل بافكارك وسر على الخطة التي ترسمها يتبعك الناس وتخدم الوطن خدمة جلى وتربح شكر البلاد وربما تقيم لك في المستقبل تمثالاً. انزع عن راسك هذا الطربوش وانبذه مكاناً قصياً لانه من المصنوعات الاجنبية ثم لف العقال والكوفية وبعد ذلك الق عن رقبتك هذه القبة وتلك العقدة واخلع عنك القميص والسترة والعطاف والجرابات والحذاء فهذه كلها اجنبية وسر وقتئذ في ثوبك الوطني!..

فقال. وكأنه لم يسمعني من شدة تأثره: والشركات الاجنبية! الا تراها تحتكر كل شيء. تستبد بنا كاستبداد عبدالحميد. يزاحموننا حتى في بلادنا. يضغطون علينا فنكاد نختنق

قلت: اصبت ايها العزيز. وزد انه منذ قدم الاجانب الى هذه البلاد قدم معهم المكروب. الا ترى هذه السيارات التي تملأ الاسواق وتثير الغبار ولا يخفاك ما في الغبـار من مكروب قتال وجراثيم مهلكة وقد ضيقوا بها طرقات المدينة ومزقوا بابواقها آذان المارة

والسكك الحديدية! والالات البخارية! فان دخانها يعكر وجه السماء الصافي ويغير من مشاهد الطبيعة الرائعة فما اجدرنا بالتخلص منها والقضاء عليها

عندئذ تعود السكينة ويسود الهدوء في هذه البلاد . ترتاح الافكار وتأمن المشاة من دهس السيارات وتغدو المخازن نظيفة ظريفة لا مكروب ولا غبار بضائع فيها

حينئذ تصبح الطرقات عريضة على ضيقها لخلوها مما يزدحم فيها الان من مركبات النقل والقطارات. ما اجمل ما تكون بيروت عندئذ وهي مستقلة في نعيمها منفصلة عن العالم اجمع لاتقلقها الاخبار التلغرافية ولا الحوادث الاوروبية . واذا اراد احدنا سفراً ركب برذونه وسار على مهله يقف كلما سار شوطاً واذا اشتد الحر قال تحت ظل شجرة ظليل

ان هذا العيش يذكرنا بسعادة ابينا آدم . ومن كان اسعد من ابينا آدم ؟!

فقال : وهذه المعاهد العلمية التي تملأ بيروت . اليست هذه طامة كبرى تنزع الوطنية من الصدور وتهمل لغتنا وتربي ابناءنا تربية غربية هذه المدارس يجب نقضها من اسسها وابدالها بمدارس وطنية صادقة

اجبت : نعم يا اخي لا فائدة من هذه المدارس . المخيلة والفطرة ودماثة الاخلاق تغنينا عن العلوم ومتشعباتها ومختلف انواعها . ما لنا وللتاريخ والجغرافية والهندسة والطب والحقوق . ما لنا وعلم الاثار والكيميا وجر الاثقال . وما لنا وهذه اللغات الاجنبية التي ليست على شيء من شرف اللغة العربية وفضلها وفخامة الفاظها وغزارة مادتها . ومع ما هي عليه تلك المدارس من جلب الشر الى هذه البلاد بتلقينها العلوم الاجنبية التي نحن في غنى عنها فانها اهملت لغتنا كما تقول ولم يخرج من بين جدرانها كاتب عربي لا شاعر ولا ناثر . . .

اما دروس الوطنية فيها فحدث عنها ولا حرج فانها تعلمنا كيف

يستميت الاجانب في حب وطنهم وتدعنا ووطننا على حدة ولولا بقية من روح الوطنية حفظناها من عهد الاتراك على ايام عبد الحميد!! كنا ندري الان ما هي تلك العاطفة الشريفة

نعم الاوفق ان تهدم تلك المعاهد وان نكتفي من العلم بالقليل الزهيد الذي يقوّم من السنتنا ويحسن من لفظنا ولا يستلزم ذلك الا بعض الكتب النحوية والصرفية . اما اجتماع التلاميذ ففي الصيف تحت السنديانة وفي الشتاء في بيت احدنا نضرم النار ونجلس حولها القرفصاء

متى يا رب نصل الى هذه الغاية المنشودة !



طفيلي

بلغ غايته القصوى . هو عن الناس في غنى . له ما يكفيه يومه وغدا . راض عن نفسه معجب بها . ينهض ضحى . يفكر في اكله ولباسه وإحفاء شاربيه وقص غرته وكفى . ثم يتناول عصاه ويمشي متنقلاً متبختراً يهز راسه عطواً ويتنشق الريح من علُ ولا يدري الى اين يسعى . قليل الهم قليل الفكر يردد الطرف الى ساعته يرى متى يأتي الظهر ليجلس الى مائدة تميد بالالوان اشكالاً تترى . تتصاعد الروائح منها عطرية يتسع لها الصدر وتتلمظها الشفاه وتمد اليها الانامل تتوالى من غير ما انقطاع وتحضنها العين برفق . فما ألذها وما احلى !

ثم يومُ قهوة يظل فيها بين نرد ونارجيلة الى المسا . فيفكر في طريقة يقضي بها سهرته من غير ما جهد ولا عنا . رواية هزلية او مضحكة خلاعية او ما قارب ذلك او ارذا

هذا رجل في ابان شبابه وكمال عقله وقوة ذراعه وعريض غناه يعتبره الناس . يرفعون له قبعاتهم في الطريق ويركضون الى مصافحته

ويقدمون له فروض التهاني في الاعياد ويعدونه بين اعيان الوطن واركانه

اني اقسم ان الوطن بريء منه لا يعترف به ابناً . فهو على عظيم ثروته واتساق قامته عبء على عاتق الوطن يؤذيه ويؤلمه

وان الفقير الصعلوك الذي يشقى نهاره ويتعب ليله . يقلب وجه الارض او يطرق حديداً صلباً خير منه واحب الى الوطن التاعس الذي هو في حاجة الى عمّال لا الى طفيليين وكفى



اغنياء السوء

سر يا يراعي ولا تجزع فان ما تمجّ من المداد الاسود على هذا الطرس الابيض . لهو اقل سواداً من ضمائر اغنياء السوء .

يعلم الله اني ما بريتك للمثالب والمطاعن وما حددتك للسخط والانتقام . ولكني ارسلك منذراً لعل مَن نخر سوس الطمع في عظامه . واستولت الانانية على فؤاده . يقوّم من أوده ويرجع عن غيه فيحاسب نفسه بما جنت من المظالم . وجرّت من البؤس والشقاء على ابناء هذا الوطن ولعل الشعب يستيقظ من ثباته العميق وينزع ما ركب يديه من قيود التذلل والخوف والانقياد الاعمى لقوم لا غاية لهم الا تشييد ثروتهم مما جمعه الفقير بعرق الجبين وتكبده من المشاق والمهالك وركوب البحر واجهاد الفكر

اما مَن حسُنت طويته من الاغنياء . وساعد الفقير وعزّى الحزين والبائس وجمع ما لديه من المال من العمل والجد والصدق والامانة فعليك شكره يا يراعي . ولا يضيع اجرُ المحسنين فبمثل هؤلاء تحيا

البلاد وترتقي وتسير نحو الخير والصلاح

واما من لزم الحياد فلم يأتِ شراً ولم يسعَ الى خير فاتركه الان وشأنه عملاً بقول الشاعر

إنا لفي زمن تركُ القبيح به من اكثر الناس إحسانٌ واجمالُ

وقد يستثقل اغنياء السوء هذه الاقلام التي لا تخشى ان تحط من كرامتهم وان تفتح العين على اعمالهم وتشرق الشمس في ظلام سمائهم لينظر الناس اليهم نظرة صادقة لا غش فيها ولا خداع يتحققون بها ما انطوى عليه اسيادنا الاغنياء اغنياء السوء من الشر والخسة والنفاق والدناءة

استثقلوا ايها الاغنياء ما شئتم فاننا لنرفع صوتنا جهرة ونرشقكم بسهام وان لم تكن محددة الاطراف فهي تخز في القلوب وخز الابر

اكتب يا قلمي فاني أسر اليك من اعمالهم وارائهم وقساوة قلوبهم اكتب ولا تخشَ

ذهبت يوماً لمواجهة احدهم فدخلت داراً واسعة الارجاء عالية البناء وقيل لي: انتظر فجلست في بهو طويل عريض فيه اثاث ورياش غالية الثمن قليلة التناسب مظنة في الذوق لا تعلق العين منها الا بما يدل على حداثة الثروة والنعمة

ومما استوقف نظري واستدعى عجبي صورة للمسيح في صدر البهو صورة للذي نادى بحب القريب بل بحب العدو . صورة للذي سفك دمه حباً بالبشر

فما تمالكت ان قلت . ما تصنع هنا يا ربي : الا تراهم وقد

سدلوا ستاراً من الذهب بينهم وبين الدنيا. الا تراهم يخادعون بك الناس ويخاتلون !!

وما لبثت الا قليلاً حتى خرجتْ من (غرفته) امراة تتساقط الدموع من مقلتيها . عرفتها فاقتربت منها وسالتها عن سبب بكائها فاجابت بكلام متقطع :

« عشر ورقات اخذتها مدة الحرب . وقد ارسل لي اهلي من المهجر خمسين ليرة فاتيتُ اسدد حسابي . فانظر الى يدي هل ترى فيها اثراً للدراهم . . قد اخذ القيمة كلها . وسألته ليرة واحدة استعين بها على امري وادفع بها الجوع عن ولدي فأبى . . . دعني اخرج من هذا البيت »

فاسفت لها وما ينفع الاسف !

ثم دخلت على ذلك المرابي فنهض لي وهش بوجهي واخذ يفرك يديه وينظر اليَّ نظرةً معنوية كانه يقول فيها

— اترى تلك المرأة التي خرجت من هنا ؟ هي صورة الشعب . نحملها على ما نريد وما نشاء . تدفع لنا ما نطلب وهي صاغرة لا ينقصها الا ان تقبل يدنا وتدعو لنا بطول البقاء . وهب انها رفعت رأسها وابت : فما تراها صانعة اتقيم علينا الدعوى وهي لا تملك شروى نقير . اتنزع يدها من قيدنا لتضعها في قيد محام لا علم له الا بيز الدراهم ؟ لا . لا تخشَ فان سلطتنا لا تزال قوية الدعائم ثابتة الاركان . قد غرَّ البعض انهم تعلموا القراءة والكتابة ولكنهم لم يسترشدوا الى ما هو انفع لهم من هذا . اين الجراة وحرية الفكر ؟

يرشقونا عند غيابنا بالسنة حداد وتاخذهم الرجفة اذا ماوقع نظرنا عليهم . قل لهم انهم لا يزالون في قبضتنا الى زمن بعيد . الم ترَ ما اذقناهم زمن الحرب من الجوع والصَغار والموت الاحمر الم ترَ كم هدمنا من بيت جعلناه مقبرة وهم يتقربون الينا ويطيلون سلاسل المباخر . ما لنا الا ان نامر بعضهم او نبش في وجهه فيدب على يديه ورجليه الى عرشنا

كاي من رجل قضا عمره في خدمتنا ناله منا الظلم وهو مستسلم راضخ

قد كان زمن (وذلك عند انتهاء الحرب) اخذنا فيه نلمس باصابعنا مواضع رؤوسنا لنتفقدها ونربط على قلوبنا بيدنا ليسكن خفقانها . ولكن ما مر من الزمن الا قليل حتى هدأت الخواطر ورجعت المياه الى مجاريها . فان رجال الحكومة قد ظلوا في مناصبهم . ولامر قد حولوا عنا ابصارهم . وما اجمل هذه المياه العكرة نصطاد فيها ما نشاء من جيوب الفقراء . ولا يغرنك ما ننادي به من على السطوح . وما نطالب به من الاستقلال في المجالس . فانا اذا أوينا الى نفوسنا ضحكنا ملء اشداقنا وقلنا :

دعهم في ضلالهم يخبطون أنتنازل عن نفوذنا وسلطتنا ونحط من كرامتنا لينهض هذا الشعب من كبوة الذل وينتصب امامنا مطالباً بحقوقه ؟ لا . لا يكون ذلك . اما حبنا للوطن وحبنا للدين الذي نفاخر به ونرفع به رؤوسنا فما هو الا حب " كما شاءت الظروف وكما شاءت الجيوب . ونحن لا نحب الا المال ولا يهمنا هلك الوطن ام سلم فانا كما تراني لا اهتم لعائلتي فكيف اهتم لوطني ؟

قرأت ذلك في ضميره وهو يؤانسني ويكلمني بلطف . وقد

استجمع نفسه على كرسيه وراء مكتبه يتلاهى بمفتاح «خزنته» ويأتي بنكات يقهقه لها . وعلى الطريق امرأة يتمزق فؤادها ويسود عليها الحزن وتكاد تعثر في سيرها لما غشي ناظريها من الدموع واليأس

كفاك ياهذا فانك تمثل دورا كأنَّ من ورائه شيطانا يقوم بحراكاته . قل لي اين قلبك اين ضميرك ؟

وكأنه قد فهم ما اردت . فالتفت الى «الخزنة» ولعب بمفتاحها كأنه يقول : «هنا»



بنو ساسان

هم في الاصل من ملوك فارس . فلما دالت دولتهم وتقلص ملكهم انتقم منهم المتغلبون عليهم بان جعلوا اسمهم علماً للشحاذين . وبيروت التي بلاها الله بكثير من المصائب والمتاعب لا تجهل مَن هم الشحاذون . فعلى كل ممرّ وعلى كل منعطف وفي كل ساحة او موقف تسمع صوتهم او انينهم يمدون اليك ايديهم واعينهم . يتبعونك إن مررتَ ولا يبرحون إن اقمت

جماعات . جماعات . لهم طرق يعجز عنها سروجيُّ الحريري واسكندري الهمذاني . فمنهم من يرتدي الثوب النظيف الجديد يضع له الاكمام العارية (والربطة) الفاخرة واذا استفرد احداً امَّل منه خيراً قصده وبادره بالسلام ثمَّ سأله بلطف — بدون ارتجاف صوت ولا تاوه — ان يسمع له كلمة واحدة . فان قبل الرجل واصاخ بدأ الشحاذ يقلب سحنته فيلبسها لباس البؤس والحزن . واخذ يتلعثم ويهزُّ يديه ورجليه كأن به داء الشلل . ثم يعرض حاجته لا على سبيل

الشحاذة بل يقول مثلاً : انه على سفر او ولده في المستشفى واتفق أن خلت جيبه من الدراهم

ومنهم من يدخل المحل تظن انه يريد شراء شيء فتنهض لاستقباله فيقدم لك كتاباً يسأل به حاجته

ومنهم من يكتب ورقة انه اخرس اطرش يحسب ان في ذلك عذراً كافياً لاقدامه على مهنة التسول على ان الاعمى يتمكن من الشغل فكيف بالاطرش والاخرس !

وهناك طبقة من الشحاذين كأنها الجراد الزاحف لا تخطو في المدينة خطوة الا ويعترضك منهم جماعات جماعات : اولاد صغار بنات وصبيان هذا بطول الذراع وتلك بطول الباع تحمل على يديها طفلاً صغيراً او تسحبه وراءها ترقّ به قلوب المارة وتُبرز من خلال ثيابها الخلقة عن جسم نحيل تتمشى فيه قشعريرة البرد فتهزه هزّ الريح اوراق الشجر

وهؤلاء الصبية لا يسيرون الا فرقاً فرقاً كاسراب الحلم . فاذا نلتَ احدهم شيئاً وجب عليك ان تساوي به الاخرين والا فلا مفرّ لك ولا نجاة من لجاجتهم وادعيتهم واخذهم بثوبك يريدون التبرك بلثمه

ومنهم من يتمدد في عرض الطريق ويأخذ في الاستغاثة والنحيب

ومنهم من يتلو عليك الآيات يقنعك بها بوجوب اعانته والشفقة عليه وقد يكون سليم الجسم قوي البنيـة لا يؤخره عن العمل الا كسل قد اعتاده وضعف في قلوب المحسنين اليه

.....

ولا يبعد ان يحسن المرء الى من هو اوفر غنى منه . فقد يكون

تحت هذه الاثواب البالية ثروة طائلة

عرفت احد الشحاذين كنتُ اتصبح به كل يوم وهو يسير مستنداً على عصا ينادي باعلى صوته :

— اعمى ضرير!

ولما مات وجد في مرقعته ثروة تذكر

تكاثرت في المدينة هذه الفئة من « الشحاذين الكاذبين » حتى اضرّت بمن يجب الاشفاق عليهم من اصحاب العاهات والامراض الحقيقية كفاقدي النظر والمشاولين والمقطوعي الايدي والارجل والعاجزين عن العمل. فان المرء — مهما كان كريماً — اذا زاد عليه الطلب والسؤال يملّ ويضجر ويمنع جميع السائلين على حد سواء.

وهناك شر اعظم من شر ابرام الناس. فانّ في كل ولد من هؤلاء الشحاذين الصغار جرثومة للصوصية « والتشرد » فما اجدر الحكومة بان تقتلعها من اصلها وتصلح ما افسده الكسل والتوكل.

. . . . .

تؤلف الحكومة من وقت الى آخر لجاناً للنظر في امر الشحاذين!
والغريب في ذلك انه كلما تعددت اللجان زاد عدد الشحاذين!



لا يرى ابعد من انفه

من الناس من لا يرى ابعد من انفه . خُلق كتلةً واحدة لا تقبل النشوء ولا الارتقاء . لا ينظر الى الامور الا من وجهة واحدة . وجهته الخصوصية . ولا يحيد عنها . متعصب لآراء ومذاهب قلبتها العصور منذ زمان . حتى انه ليناقشك في ثبوت الارض ودوران الشمس من حولها وغروبها في كل يوم في مجرى حتى تستوفي في السنة ثلاثمائة وخمسة وستين مجرى ثم تعود الكرة اليها !

وقس على ذلك نظرياته في الفلسفة والعلوم والتعصب الديني والاداب . قلَّ ان يستعمل عقله في شيء بل هو مستعمل قلبه ابداً . فاذا كره قام الكره عنده مقام الدليل

على انفه نظارتان زرقاوان لا يرى الا بهما ويحسب كل شيء في الطبيعة ازرق

فيا ذا النظارتين اللتين تحملهما على انفك المستطيل انزعهما والقِ بهما بعيداً عنك فان الاشياء تبدو من خلالهما على غير ما هي . وقد

يحسران بصرك فلا ترى بعيداً ولا تميز بين مختلف الاشباح الماثلة امامك . اجل انهما يريحان النظر من لمعان نور الشمس . نور الحقيقة . ولكنهما يصبغان الاشياء صبغة واحدة تذهب بها كل الالوان الجميلة التي اوجدها الله في الطبيعة مؤتلفة متناسقة . لذة للعين ومسرة للقلوب

هاتان النظارتان تخدعان وتغيران وجه الطبيعة . فما تشبثت بالمحافظة عليهما لا تستطع الدخول في معترك العالم والسير في الطريق التي يسلكها الفائزون السابقون

اترى انك على قصر نظرك تتمكن من ان تحمل الناس اجمع على اتباعك واقتفاء آثارك والعمل برأيك وانت تسير متخبطاً بالظلمات تستضيء بنور افكار ومذاهب مرت عليها الوف من السنين فلم تدع لها قائمة ولم تُبقِ لها جداراً

متعصب في جميع اعمالك لا ترى ابعد من انفك ولا تريد ان ترى . وتتعجب كيف انك واقف في مكانك لا تتزحزح بينما ترى العالم قد سبقك الاشواط البعيدة حتى انه لو لفت نظره لما رآك وراءه

العالم اكبر مما تتوهم . إفتح عينيك تره اوسع من هذه البقعة الضيقة الممتدة على شاطيء البحر المتوسط . أنظر فالكون ارحب من عقلك المتجمع على نفسه . وافكارك المتزوية في جانب من محيطك

إنزع نظارتيك واصعد الى قمة عالية وارسل الطرف الى ماحولك ترَ العالم كالجبار الهائل يتخطى مراقي التقدم . يسير كالتيار العظيم لا يلوي على شيء يعترضه . يقتلع الاشجار . ويهدم البناء . ومن وقف في طريقه اهوى به الى الحضيض

يمرُّ عليه الناسُ لا يرحمونه   تصوّت من تحت النعال ترائبه

لا تنزو في عقر بيتك ولا ترفع دون الافق الواسع سوراً من الاوهام التي رافقتك منذ القدم

انزع ثوبك البالي فقد خرقته العصور ومزقته الايام . وعليك بثوب جديد يقيك لواذع البرد وحوارق الحر

البس ثياب عصرك لتعيش مع عصرك والا فلا لذة لك في الحياة

اذا اردت الفلاح فلا تأتمر بقلبك . ان القلب لظالم . ان القلب ليخدع . استعمل قلبك في الرحمة والشفقة . في الحب والحنان . ولكن اذا طلبت الحقيقة فاضرب عن عواطف القلب وانصب من دونها سداً وحكم عقلك فلهذا خلق العقل



البابوده اليزبوده

قفل حانوته وتأبط « ممطرته » وهرول الى البيت مسرعاً . « جريدته » في جيبه ورأسه ممتلىء سياسة

ما انتهى من طعام العشاء حتى جثم حول النار وفتح « جريدته » على ركبتيه وقرأها من عنوانها حتى اسم المطبعة في آخرها . لم يترك منها حرفاً واحداً

حوله اولاده يلعبون او يبكون وامرأته تخيط او تغطّ امام الموقد . وهو راكب متن السياسة يدير شؤون الامم ويسفر فيما بينها

وقد ينهض ويأخذ في التمشي ذهاباً واياباً او يقف امام صورة سياسي معلقة في الحائط يستنزل منها الوحي والالهام لحل بعض المشاكل التي تجول في عقله

واذا كلمه احد في امر اجابه بذكر بعض رجال السياسة وما اتوه من حسنات او سيئات

سألته مرة مستفسراً عن نوع من البضاعة فاجاب :

— ان « بوانكاره » ليخبط خبط عشواء في سياسته الخرقاء مع الالمان ولو كُلفتُ لاصلحت ذات البين بين الامتين

فقلت له — وما يمنعك من ان تعرض الامر على الوزارة علها تعمل برأيك !

فهزّ رأسه مرتاباً وقال :

— وهل هنالك من يسمع !

ويجتمع اليه في بعض الاحايين رهط من الجيران فيعقدون حلقة كبيرة من حوله ويتدرجون من حديث الى حديث حتى يتناولوا السياسة وهناك يحمى وطيس الجدال

وقد تكون حرارة النار دبت الى قلوب الحاضرين حتى النساء والانسات منهم . فيأخذ كل واحد في ادلاء رأيه واسداء المشورة الى هذه المملكة او تلك الجمهورية

ولا يبعد ان تسمع مثل هذه الجمل :

— ولماذا لا يتفق ملك فرنسا مع اليونان !

— اذا وقعت الحرب يهجم الاسطول الانكليزي على باريس

— ان ولسن اكبر قائد في العالم . . .

— وعند مروري في باريس كان « ستراسبورج » ضيفاً عليها

ويكثر بين هؤلاء الساسة المتكهنون والراجمون بالغيب . فهذا يضع خطة اذا تمشت عليها الدولة الفلانية تسلطت على العالم في برهة وجيزة من الزمن وذاك ينصح للانكليز تغيير مسراهم والا تتدهور مملكتهم الى مهاوي الاضمحلال

. . . . .

وقد تؤدي المجادلات والمناقشات الى الغضب والصخب والاخذ بالتلابيب دفاعاً عن رأي او تحزباً لاحدى الدول

. . . . .

وما زال صاحبنا يركب غوارب السياسة ويتولى وضع الخطط الحربية وتوثيق عرى العلائق الدولية حتى فتح عينيه ذات يوم فاذا صندوقه فارغ وتجارته كاسدة والدين متراكب عليه فأُسقط في يده وندم ولات ساعة مندم . . .



المتحذلقات

هند امرأة جميلة لطيفة . وجهها ضحوك وثغرها كجرح في رمانة. رقيق الشفتين يبرز عن لآلي اصفى من قطر الندى . حديثها لذة المجالس . وزقزقتها نعيم الآذان . وإذا اشارت كشفت عن انامل « تكاد من اللطافة تعقد »

اما ذوقها فلا من يجاريها فيه . هي احسن من وضع قبعةً على رأس وعقد زناراً في خصر ونقل رجلاً في حذاء . تنتظر الجارات ان تخيط هند ثوباً ليتبعنها في زيها

فما اوسع نفوذ هند ! وما اعظم سلطتها في الازياء !

انما هناك امر يؤسف له : هند مولعة بالكتابة وتدعي انها كاتبة مجيدة

لما كانت هند تلميذة في المدرسة كتبت يوماً ثلاثة اسطر في وصف غروب الشمس وعرضتها على استاذها ففتح عينيه ورفع حاجبيه ومكّن نظارتيه وزم شفتيه متعجباً وقال : انك لتصيرين كاتبة

واي كاتبة!

كلمات رنت في قلب هند رنين النواقيس في الاعياد

ومنذ ذاك الحين اخذت سوسة الكتابة تنخر في رأسها الصغير حتى نفذت فيه واستأجرت لها محلاً بين خلايا الدماغ ولا تزال هنالك مطمئنة آمنة تعيث فساداً ولا من رادع ولا من وازع

تحلم في منامها بمستقبلها الباهر وارتقائها الى مرتبة الكاتبات الشهيرات كجورج ساند ومدام دي ستال والكرنتسة دي نو ايل وغيرهن من اللاتي رفعن منار الادب بين الفرنساويات

تركت المدرسة وهذه الافكار ترقص امام مخيلتها وهي تتبعها وتدور معها حتى انها لا تقع عينها على ورقة الا سودتها وحملتها من «صبيانياتها» ما تنوء به الجبال

لا تسل كم كان سرورها عظيماً لما نشروا لها في بعض الجرائد قطعة من نثرها بعد ان قلبوها ظهراً لبطن لما احدثوا فيها من التصليح والترتيب والتطهير من الاغلاط النحوية والصرفية على ان ذلك لم يمنعها من ان تشمخ بانفها وتنادي بتفوقها في فن الكتابة

لو وقفت المسألة عند هذا الحد لهان الامر ولكن بعض التقاريظ التي كان يجاملها بها الادباء زادت في الطين بلة ووأدت عند هند الافكار الغريبة والآراء العجيبة فباشرت في ابداء مذاهبها في اصلاح الهيئة الاجتماعية والحياة النسائية . والناس يتذمرون ويتأففون وليس من يقدم على صدقها الخبر وايقافها عند حدها . ولما تزوجت كان هذا الداء قد تأصل فيها وسرى في عروقها فما استطاع زوجها في استئصاله شيئاً

اذا عنَّ لهند فكر وهي في مطبخها تركت الطعام على النار

وهرولت الى مكتبها وابرزت ذلك الفكر الى حيز الوجود . وشاط الطعام . وضرب زوجها رأسه يتندم لاقترانه بهذه الكاتبة

يبكي ولدها ساعةً ولا تفارق تلك الورقة الطويلة العريضة قبل ان تملأها من سخافاتها وترهاتها :

جُمَل لا يُعرف رأسها من ذنبها . تاتي متتالية على غير ميعاد ولا اتساق تجر بين احرفها جيشاً من الاغلاط والسفاسف . هي حريصةٌ على مبتكراتها فلا تفلت منها واحدة بل تقيدها جميعها في دفاترها وتحرص على دفاترها في درج محكم القفل متين الاغلاق

لا ترافق الا مشاهير الكتاب ولا تتحدث الا عن شكسبير ودانتي وراسين والمتنبي وابي العلاء المعري وغيرهم من كبار الادباء من جميع الامم والشعوب . تراهم مبعثرين على الكراسي وفوق المقاعد وفي المقاصف فضلاً عن المكاتب والخزائن . تترك آثار هذا لتتمسك بآثار ذاك وزوجها يحلف الايمان المحرجة انها لا تفهم مما تقرأ شيئاً

كم من مرة وعظها وانبها وغضب . وذهب كلامه وغضبه باطلا

كيف تصدق زوجها وفلان قال لها : انها اكتب اديبة الى الان . « ميّ » شمعة ضئيلة النور امام مشعلها الساطع

وفلانة تفاخر بها الادباء من الرجال

لا غروَ ان تنتفخ هند كبراً وقد خطت ريشتها صوراً يعجز عنها ابرع المصورين . اليست هي التي كتبت جملاً مثل هذه :

« ما اجمل الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب ! »

« لما كبرت مريم اضطرت امها الى تكبير ثيابها ايضاً »

« هذا الطفل ابيض احمر اشقر وردي اللون له عينان كبيرتان كاللوزتين الصغيرتين . . »

. . .

ضاق زوج هند صدراً وثقل عليه العيش وحيداً على الارض بينا عقيلته في القمر وبين النجوم . فكر طويلاً في حيلة ينزل بها امرأته من اعالي السموات فلم يفلح . كان كلما نصب لها سلماً لتنحدر اليه رفست السلم برجلها فهوى الى الارض وتحطم . غير انه لم يزل يعمل الفكر حتى اهتدى الى طريقة شيطانية كانت القاضية على القصور الذهبية التي كانت هند تشيدها في عالم الادب

. . .

اغتنم فرصة غياب امرأته وجمع ما وقع تحت يده من الكتب والروايات . وكسر الاغلاق واستولى على اوراق هند ومخطوطاتها وما تحتويه من آرائها ومذاهبها ونقل الكل الى الحديقة واعمل فيه النار فاندلعت السنتها وتعالى دخانها وكانت هند عائدةً من غيبتها فلما رأت من بعيد ذلك الدخان المتصاعد شعرت كأن شيئاً يقبض على قلبها فتحاملت الى البيت ولما شاهدت اوراقها وافكارها تلتهمها النار وتذهب منتشرة في الفضاء ثم تتبدد ولا يبقى لها اثر اغمي عليها . . . غير ان ذلك الدواء كان ناجعاً فشفيت هند من داء التحذلق وحسنت علاقتها مع زوجها وولدها



فيلسوف

شعرٌ متراكب على قذاله . وانف ضخمٌ تكاد ارنبته ان تختفي
لما تجمّع فيها من الخرة الكحول . ينظر من عينين حمراوين غائرتين
تحت حاجبين كأنهما جناحا طير صغير . يسير لا يلتفت لا يمنة ولا يسرة
يصطدم بكتف هذا ويطأ رجل ذاك . يحسب ان مَن حوله من الناس
غلًا او بغاثاً . وكيف يكونون خلاف ذلك وهم لا يدرون ما يدري
ولا يفقهون من الحياة ما توصل الى فهمه بقوة ذكائه ودقيق ابحاثه !

هو فيلسوف !

تراه دائماً مفكراً مقطّب الجبين . اذا مرّ في مخيلته ذكر
الاولين من الحكماء استهزأ بهم واشفق قلبه على ما كانوا عليه من
الجهل ثم عذرهم لانهم لم يكونوا على شيء مما هو عليه الان من العلم
واذا تأمل ما تركوا من الشرائع والعادات والقوانين ضحك في نفسه
وهزّ رأسه اشمئزازاً

اما الديانات فهي شيء لا يستحق الوقوف عنده . قد نفض عنه غبارها منذ كان يافعاً . . .

هو فيلسوف !

كتب تملأ جيبه ومجلات كثيرة تحت إبطه واما مكتبه في قهوة على ساحة الاتحاد او في خمارة على شاطيء البحر.

يجلس الى الطاولة هناك ويأخذ ورقة ويشرع في نقض اسس العالم القديم وبناء عالم جديد على آرائه ومذاهبه

واذا تعب من التفكر سأل احدهم ان يلاعبه بالنرد ساعة حتى يعاوده النشاط والهمة لاتمام ما بدأه من تشييد عالمه الجديد

وقد تساعده النارجيلة على توليد الافكار فكلما قرقرت له فاضت قريحته وامتد خياله واشرف على مبادىء لم يحلم بها احد من قبل

انما الخمرة هي خير المعاونين

الا تراها كيف تشع في كاسها كانها قبس او لهب . كأنها نار آكلة تلتهم المبادىء والافكار القديمة التي ورثناها عن الاولين وترفع العقل الى الفلك الاعلى ترشده الى افضل ما في الكون من عاطفة او خاطرة

كؤوس صاحبنا طافحة . وانوار الخمارة ساطعة . وصاحبنا كأنه ملك على عرش قد انبسطت اسرة وجهه امام ابنة الكرمة يبسم لها ويخاطبها ويغازلها وهي تفوح طيباً فتزيده شوقاً فيوالي تقبيلها حتى يتلعثم من الحب لسانه فيكتفي عندئذ بترديد النظر اليها ومباشرتها بيد مرتجفة اجلالاً واكباراً ! . .

وانه ليدري معاني الكؤوس وما تنطوي عليه كل جرعة من الالغاز والرموز . في الكاس الاولى معنى ليس في الرابعة او العاشرة .

هو فيلسوف !

يوزع من مكتبه بين النارجيلة والخمرة افكاره وخواطره على عالم الصحافة . له في كل ورقة حقل يملأه « بنفحات شذاه »

« نفحات » يقف عندها الشعب الساذج مرتبكاً يسائل نفسه عما اراد بها الكاتب ثم يتفقد منخريه يظنّ ان بهما زكاماً يمنعه من التلذذ بعطر هذه النفحات

اما المتنورون فهم اقل حظاً من الساذجين في تفهم هذه البدائع والسير وراء فيلسوفنا في مجاهل كتابته فلا غروَ اننا لم نبلغ بعد ما بلغ من الرقي العقلي لندرك ما يريد ان يقول

هو فيلسوف !

هو فيلسوف ثائر يودّ لو نظّم العالم على ما توحي اليه الخمرة فيعيده الى جنة عدن على انه سوف لا يزرع في الجنة سوى الكرمة والتبغ والقنّب

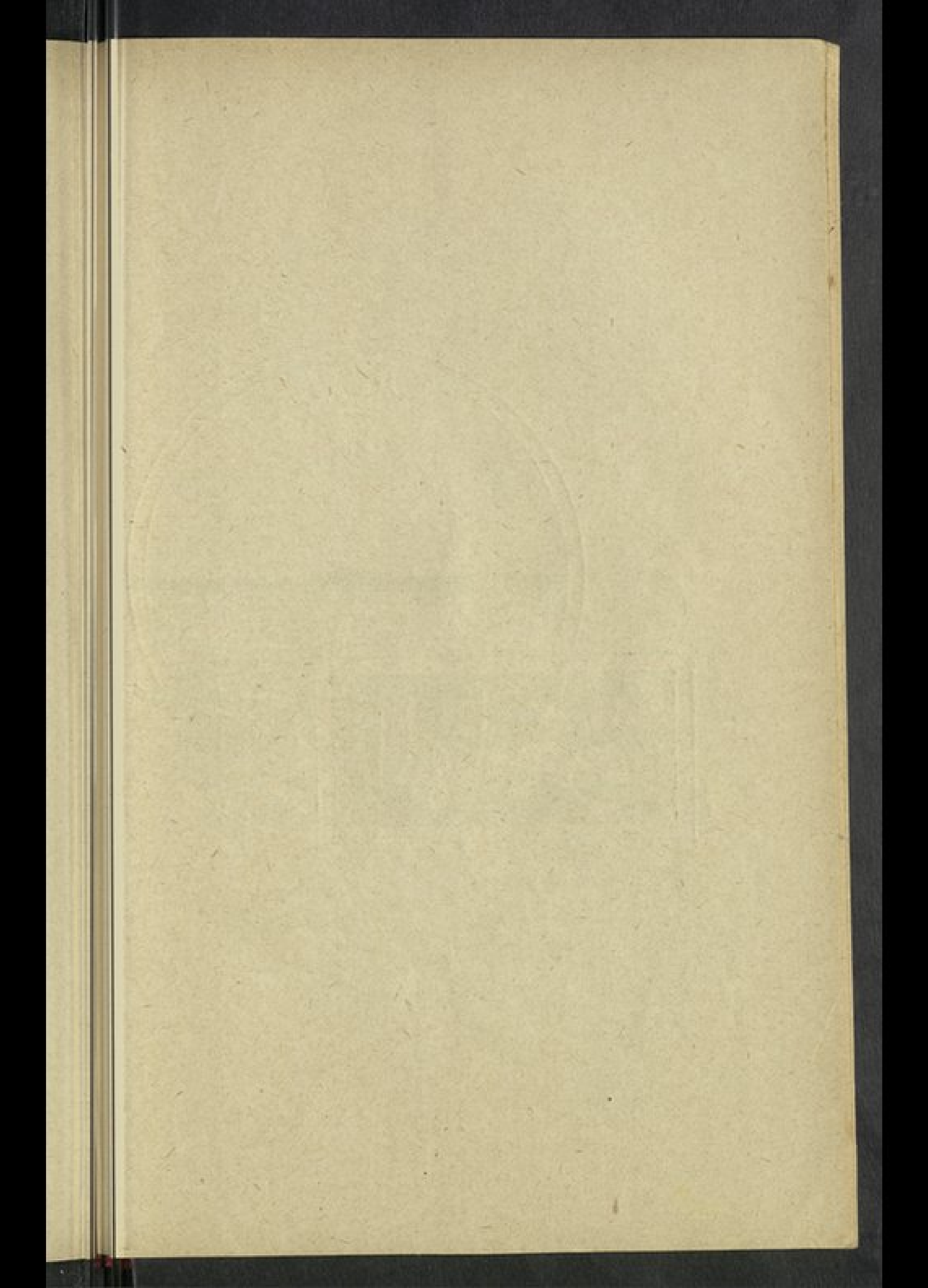
واذا انهى حديثه مع الكؤوس قام يتهادى الى بيته لا يرافقه احد ليتناول ما يتساقط من درر الفاظه فيسرّها الى الجدران وقد يبوح بها الى عواميد الترام . فكم من مرة رأيته مسنداً عليها رأسه يضمها بين ذراعيه

. . .

هو فيلسوف !

هذه غرفته . ما كاد ان يلجها حتى ارتمى على سريره بحذائه وثيابه ونظر الى كتبه فاذا فلاسفة الاقدمين والآخرين يرقصون امامه . تفتح الكتب اشداقها ضاحكة من هذا الفيلسوف الحديث . . . !


المهاجرة



الى المهاجر

يأتون افرادا . ويرجعون ازواجا . يهبطون الى المدينة عشرات عشرات . نساء ورجالاً شباناً واطفالاً . يملأون الفنادق والخانات

يرتمون بين ايدي السماسرة ويستسلمون للشركات . يضع هذا يده في جيبهم وتستولي تلك على كيسهم . وهم اطوع من الانامل . واتبع من الغنم . لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال حتى يركبوا ذلك الازرق الجموح . كأنما على امواجه طلاسم من سحر كلما وقعت عليها نواظرهم مالت اليها قلوبهم

ولبنان ينظر اليهم ويكاد يتفجر من الاسى يحمل على مناكبه بيوتاً متهدمة وبيوتاً فارغة . والاراضي بينها مهملة تعدى عليها العليق واستبد بها العوسج فاذا طال المطال على هذه الحال خلت القرى من سكانها وقام الدمار مكانها

مريام

نصبوا له خيمةً من قصب على رابية عالية خارج القرية . املوه بالشفاء تحت سماء لبنان وفي هوائه ومن مائه

وأنّى له الشفاء وهو كخشبة ملقاة بين الشراشف البيضاء لايتحرك في وجهه الشاحب المجعد الا عينان حائرتان كأنهما لا تعلقان بشيء من اثار هذا العالم بل تنفتحان على عالم الابدية

السكوت سائد من كل جانب الا اذا استبدت بالعليل احّة شديدة متقطعة يرن صداها في صدر فارغ تهزه هزة يعقبها جمود كأن اظافر الموت قد نشبت بهذا الجسم الضئيل البادي

النور يملأ الفضاء . السماء الصافية كأنها قبة من زبرجد تمر عليها بعض الغيوم المذهبة الاطراف وتسبح فيها صادحات الطيور . الصنوبر الغض يتماوج عند هبات النسيم فيسمع فيه حفيف كأنه نغمات سماوية وينتشر منه عبير زكي تنتعش به الصدور . وهناك حقول ممتدة وجبال متتابعة ترتدي الواناً عجيبة كأنها اعناق الحمام كلما مرت ساعة من

اثر من تغيرت الوانها

وقريباً من نظر العليل كروم تنو. بعناقيدها يجتمع اليها الاولاد والشبان والشيوخ . على وجوههم علامات الصحة والهناء وثيابهم الساذجة ملؤها عضلات قوية

يفتح الوجهُ الشاحبُ ناظريه على هذه المشاهد الساحرة ويعود بافكاره الى ايام كان فيها فتيًا يسرح ويمرح في هاتيك الحقول يتصبب العرق منهُ صحة وعافية وتقبله شمس لبنان قبلات تورّد وجنتيه وتجري في عروقه دماً نقياً طاهراً. يذكر يوم كان يتسلق باسق الشجر ويتسور الجدران ويهزأ بالمخاطر والمخاوف ويجاري رفاقه ويصارعهم ويكشف عن صدره لقوارس البرد وحر الهواجر

شبَّ فحرث ارضه وسواها. غرس اشجارها وتعهدها بسهره وقوة ساعده. هذا هو الكرم الذي راقب نموه ورفع فسائله. هذا بيته الذي رصف حجارته وجبل طينه. لم يكن آنئذٍ يفتش على السعادة فانها كانت تحف به من كل جانب وصوب. كان يضحك ولا يتبسم. كان قلبه على يده لا يعرف معنى الغش ولا الخديعة ولا يحابي ولا يماري

فاي شيطان نفث في صدره ذلك السم الذعاف الذي اوقفه حائراً هنيهة ثم دفعهُ دفعاً حتى كبت رجله فاذا هو على ظهر باخرة تتهادى على غوارب الامواج تلج تحت اسدال الليل كأنها سرٌّ بين الماء والسماء

راقب النجوم وهي ترتجف في قبتها وسألها عما يخبئه له الحظ وراء تلك البحور الواسعة المظلمة. وقد تذكر اهله فبكى وسقطت تلك الدموع الحرى في اليم المضطرب واختلطت بكثير من مثلها تسح بها اعين اللبنانيين وهم يرقبون النجوم على ظهور البواخر

سيري ايتها الباخرة مسرعاً فانّ حيث مرساك ذهباً وهاجاً يخطف الابصار وقد تركنا الاهل والاصحاب لنملأ نواظرنا من نوره وبهائه

ليال مرت وايام وأت وأطلّت الباخرة على مرفإ العالم الجديد فهبطت الى الارض جموع المهاجرين ودخلوا قلب « المدينة الهائلة » فابتلعتهم وبددتهم في شرايينها

في « المدينة الهائلة » لا راحة ولا نوم. سِرْ مسرعاً ولا تنظر الى الوراء. تيار مخيف يجمع بين الناس ويدفعها امامه. لاتقف في طريقه فيكبك على وجهك وتذهب فريسة الزحام

قم باكرا ولا تنظر الى السماء فانك لاتراها. بنايات ذاهبة في الفضاء ترتفع فوق رأسك ترد طرفك كليلا. الى المعامل. الى المصانع. سقوف عالية سوداء تختلط تحتها الانفاس وتجتمع فيها جراثيم الاوبئة. الى المناجم المظلمة الى الانقاب الى الانفاق

اين السماء الصافية. اين تغاريد العصافير في الاسحار. اين اناشيد الفتيان على الروابي. اين خرير السواقي واين تقبيل النسيم في مساء يوم من ايام الربيع ...

دع كل هذا. هذا حلم مر. جمّع الدرهم فوق الدرهم. اتعب ساعة لتسعد دهراً. خفف من نفقاتك وقتّر على نفسك. غداً تبسم لك الثروة وترجع الى الوطن فتبني لك قصراً. قصراً عالياً يجتمع حوله ابناء القرية في العشي ويعجبون من زخرفته وجميل هندسته. ماهي الابضع سنوات...

ضع الدرهم فوق الدرهم... لاتقل قد انحطت قواي ولا تربط بيدك على قلبك ولاتصح: صدري! اغمض عينيك ولا تفتش على السعادة...

ياابن لبنان قد هدمت عشك بيدك وجاء الغراب فوضع فيه بيضه

قف مكانك. فما هذه الاحة التي تتردد في صدرك. لم يمر عليك الا عشر سنوات وها اراك محني الظهر تسحب رجلك سحباً. كفاك تعباً وشقاء. ان جيبك قد امتلأ ذهباً رناناً. ان الباخرة التي حملتك الى هذه الديار قد القت مرساتها في مرفأ «المدينة الهائلة»

جمع المهاجر ثروته في صرّة. وحمل داءه في صدره. وركب البحر عائداً الى مسقط رأسه

ولكن النجوم المرتجفة في القبة الزرقاء لم تُدعَ الى مناجاته. وسكون الليل لم يكن مستودعاً لاسراره. فان الداء قد الزمه سريره. ولم يصحبه في غرفته البيضاء الزاهرة الا اشباح هائلة وأحّة متقطعة كأنها نقرات ساعة تعد عليه ما بقي له من ايام حياته

صرّته في يده وداؤه في صدره. وصل الى بيت ابيه فانكره ذووه واخذوا يرددون اليه النظرات متسائلين. امرأته وقفت بعيداً عنه ولم تقبله قبلة اللقاء. هذا شبح أفلتَ من عالم الارواح وتمثل بشراً

نظروا الى يمينه فاذا فيها صرة من الاصفر الرنان فاعدوا له غرفة وجاء الطبيب. نظر اليه ولم ينطق

نصبوا له خيمة على رابية عالية خارج القرية

كالصُوَر المتحركة التي تتتابع على الملاءة البيضاء. كانت تمر هذه الحوادث في مخيلته. ينظر اليها بعين البصيرة ويتلوها ككتاب مفتوح امامه

ثم يتأمل بعض الاولاد الصغار الذين يتراكضون ويصيحون في ذلك الكرم المثقل بعناقيده وينادي ولا من يجيبه. فتتساقط العبرات على وجنتيه المجعدتين وكأن مدية مشحوذة الحدين تقطع ما تبقى من نياط قلبه

اين اهله واقاربه ؟ قد ابتعدوا عنهُ وتجافوه واذا عادوه فلا يقربون من سريره بل يقفون بعيداً ويبسمون املا بفائدة تعود عليهم من تلك الابتسامات

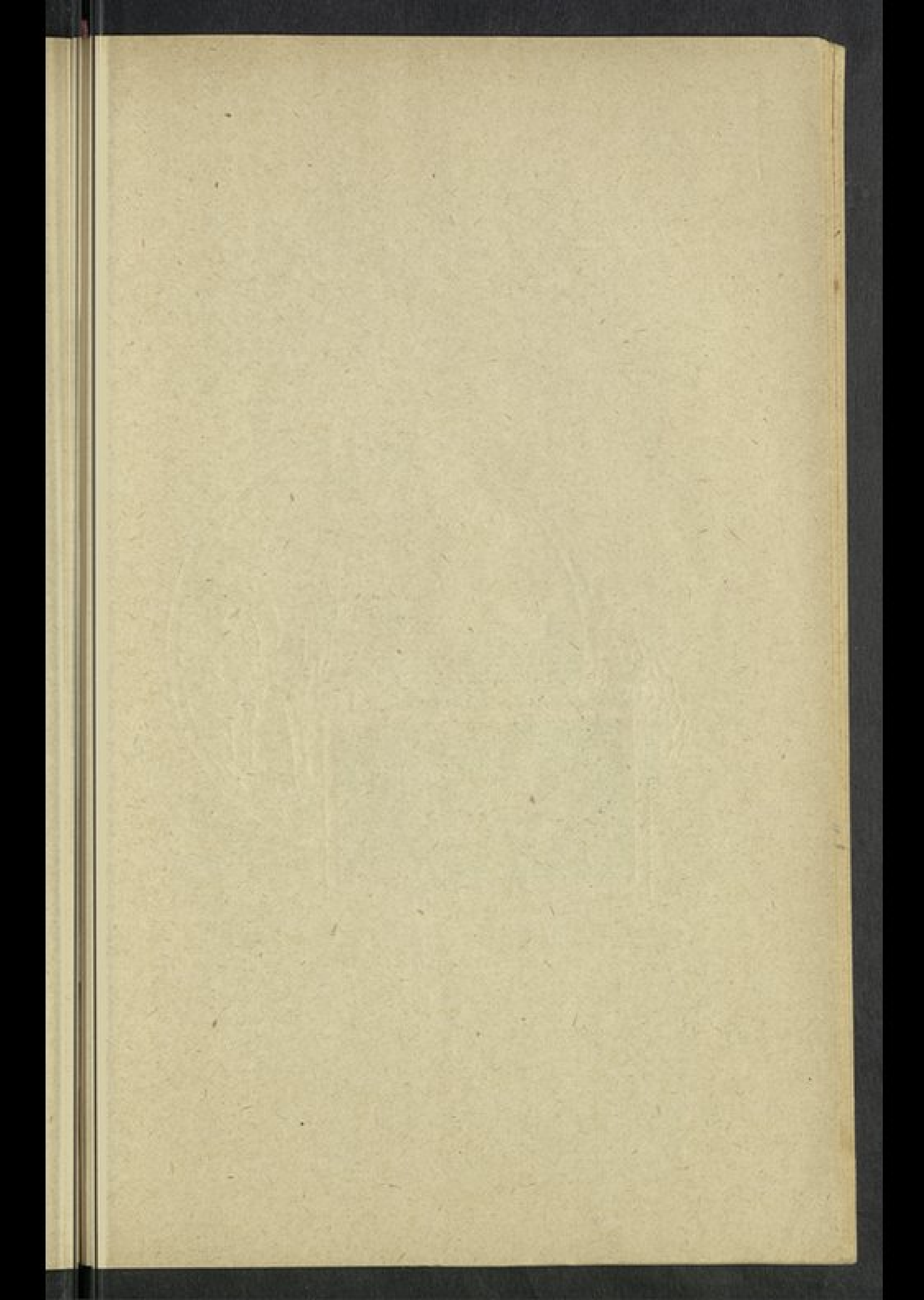
اين امرأته !

هي جالسة على كرسي خارج الخيمة . رأسها على يدها تنتظر قدوم « محرر المقاولات » . ان هذا العليل المستلقي على فراشه لهو عب. ثقيل على عاتقها . ان هذا الشقي الذي هجر السعادة التي تكون حيث الصحة والعمل وطلبها وراء البحار اصبح كالسراج الذي نفد زيته ولا يلبث ان ينتفض الانتفاضة الاخيرة ليسود الظلام حوله

اغمض عينيك على مناظر لبنان الساحرة وارم بصرتك لهؤلاء المنتظرين فان ساعة المساء قد قربت واخذ الليل ينشر سدوله . ودّع النور . ودّع الشمس الساقطة في دمائها وراء البحار . ودّع انت مناظر لبنان فان عيوناً كثيرة قد أغمضت في ظلمات المهجر ولم تتزود بهذه النظرة الاخيرة




لبنان



لبنان افندي

اتعرف « لبنان افندي » ؟

لا اخالك تنكره وهو في الشوارع والنوادي. في المدن والقرى في القصور والاكواخ ، لا يزال في غدو ورواح وجدل وصياح . قد ملأ المجالس حديثاً والقهوات افكاراً. وفي اي بلد اردته وأنّى طلبته تجده في المجتمعات والمناقشات فهو وراء البحار في المهاجر وفي مصر وبلاد الفرنجة وفي كل صقع بعُد او قرب من بلاد الله

فان كنت لا تعرف « لبنان افندي » فانك اذن لا تنظر الى حولك ولا تهتم بامر غيرك او انك تعيش في القفار او انك على سلم في السماء او في نفق تحت الارض

وقد تقول لي كيف يكون في كل مكان ؟

فاعلم انه كالممثلين يبدو كل يوم بحلية ويلبس لكل دور من ادواره حالة من حالات النفس والانفعالات والتأثرات

فهو طوراً شيخ جليل . وتارة فتى غض الاهاب . وقد يبدو

في اثواب غلام صغير وربما مثّل ادوار النساء . على ان هذا كثير الندرة لا يعتد به ولا يعتمد عليه

فترى اذن أنْ لا سبيل الى وصفه وتحديد هيئته والاخبار عن ثوبه وخفه فقد يلبس السراويلات والمداس وقد يرتدي العطاف والحذاء اللماع والقبعة الافرنجية وقد يحمل الخيزرانة الثمينة ذات المسكة الذهبية . وقد لا يرتدي الا غنبازاً من نسيج وطني

وانك لتراه ينطق طوراً عربياً فصيحاً وتارة اعجميا في صدق لهجة واستقامة جملة . وقد يجمع بين الاثنين فيخالف بينهما من كلمة الى كلمة ومن جملة الى جملة وهذا شر الشرور

وعليه فان « لبنان افندي » هو صعب التحديد كثير المزايا والصفات والعيوب والنقائص لا يثبت على حال من الحالات فهو كالزئبق الرجراج لا يهدأ الا في قرار مكين

وقد سبق ان قلت لك انه كالممثلين يتجلى بمناظر وهيئات مختلفة متناقضة متباعدة وعواطفه ونزعاته تتبعه في اختلاف لباسه واطواره من فتوة وشباب ورجولية وشيخوخة

وقد عاش هذا الرجل ولم يجمع على رأي واحد ولم يسع في سبيل واحد فهو معرض لتقلبات الهواء وانحدار الامطار وتغيرات الفصول . يطرأ عليه حادث فينتفض له انتفاضاً ثم ما يلبث ان يدركه الهدوء . فيستكين الى ان يطرأ حادث اخر

« فلبنان افندي » قد ورث كثيراً عن الاتراك . وسار في كثير على خططهم فاذا استقوى اعتدى واذا عرض له باب في السياسة غير مأنوس ولجه

وله صفات غيرها كثيرة منها انه اذا استغنى قسا . واذا افتقر ذل . واذا ضاق به الامر في وطنه هاجر

وهو يطلب اغراضاً كثيرة ويود لو مسك ناصية الجوزاء بانامله وسبح في نهر المجرة من العز والمنعة والعلاء

ولكنه يريد ذلك وهو على فراش وثير

ومع هذا فقد تكاثرت مطالبه حتى اصبح لا يدري ماذا يريد ولا يعرف اي طريق يسلك . فهو تارة يتذمر وطوراً يشكر

انه كما قلت لك ممثل بارع . يمثل روايات عديدة يبرز فيها بهيئات مختلفة

ويا ليته مثل رواية واحدة رواية الوطنية واكتفى



المسيو لبنان

« المسيو لبنان » يلبس القبعة الافرنجية من آخر طرز آتية رأساً من باريس . يشد وسطه بسترة مخصورة . ويرسل على اعلى صدره من جيب السترة طرف منديل حريري . ويحمل خيزرانة يثبتها في المعصم بشرابة او بقدّ من جلد ناعم

« المسيو لبنان » يحفي شاربيه ولا يدع منها الا اثراً خفيفاً فوق شفة قد يطليها بالحمرة . يضع على اعلى انفه نظارتين ذهبيتين لغير ما اضطرار ويرفع رأسه ويجري سريعاً . واذا لقي صديقاً في طريقه احنى ظهره مراراً وادار هامته يميناً وشمالاً . وقلب عينيه وتبسم وضغط على يد صاحبه واندفق في الآه ! والايه ! والسلام باللغة الفرنساوية يرسله عالياً . وقد يلثغ في حرف الرا . كما يلثغ الباريسيون (على زعمه)

« المسيو لبنان » يود في جميع حركاته وسكناته لو انخدع به الناس ولم يعرفه اهل وطنه وقالوا عنه عند رؤيته : هذا رجل فرنساوي فيا لسعادته عند ذلك فانك تراه يبسم ابتسامة خفية وينظر الى من

حوله من لابسي الطرابيش نظرة ترفّع واحتقار

لا تُرضي عوائد هذه البلاد وتقاليدها « المسيو لبنان » فهو لا يحب ان يجري عليها حتى انه قد يكره ان يُحدّث عنها . ولكن حدّثه عن باريس . عن الاوبرا والبولفار وغابة بولونيا والشان إليزه . حدثه عن سباق الخيل في لون شان وعن ازياء باريس وعن اخر رواية مثلت فيها . حدثه عن اخر كتاب طبع وعن حياة كاتبه فانه يجري معك في هذا المضمار الى اخر ما تشاء ولا تعب ولا عتب

ولكن حذار ان تدخل في حديث عن بلاده ومسقط رأسه وعن تاريخها وعن حالتها الاقتصادية وعما يجب السعي فيه لانهاضها . فهذا امر لا يهمه كثيراً ولا يأبه له

قد سها عن بالي ان اقول لك ان « المسيو لبنان » لا يعرف اوربا لانه خلق في بيروت وربي فيها وهو فيها الى الان . ومع هذا فانه مطلع على الكثير من احوالها وامورها لا سيما التي لا فائدة منها كالتي ذكرت سابقاً وذلك لان « المسيو لبنــــان » يقرأ كثيراً . لا تراه الا وكتابه تحت ابطه او في يده . وقلَّ ان يكون ذلك الكتاب غير رواية غرامية حدثت في باريس . واني اراهنك ايها القارئ اللبيب على انك لا تجد بيده كتاباً عربياً ولن تجد

اذا ذكرت اللغة العربية امام « المسيو لبنان » قلب شفته السفلى ونظر الى من ذكرها شزراً وسكت علامة الاستخفاف والازدراء

اذا رأى « المسيو لبنان » اجنبياً رأيت جبينه يكاد ان يلمس الارض وتكاد تحسبه خادماً له لا صديقاً . واذا رأى ابنَ بلده كلّمه من علُ وافهمه انه يفوقه جداً لانه يعرف ان يلثغ باللغة الفرنساوية

قد يتبادر الى ذهنك ان « المسيو لبنـان » رجل غني يحق له البذخ والاسراف والتقليد . لا يا سيدي فانك واهم في ذلك . لان « المسيو لبنان » يعيش على راتبه الشهري واذا قطع عنه هذا الراتب ضاق عليه امره

« المسيو لبنان » له والدان واخوة واخوات يذوقون في عيشهم الامرّين . ولكن ذلك لا يهمه ولا يحب ان يعرف ما هم عليـه من التعثير والعناء خوف ان ينغصوا عليه لذته او ان يعكروا في عينيه زجاج نظارتيه الذهبيتين

ان « المسيو لبنان » جبلة غربية شرقية هو مسخ جديد احدثته المدنية . وقد كثر عدد امثاله في شوارعنا فما على المراقب الا ان يقف في اي شارع اراد فانه يشاهد هناك مساطر كثيرة من هذا « المسيو » انا قد بدأت وعلى المراقب ان يتمم



لبنان افندي المرابي

قلت في نفسي يوم قام الضجيج حول وفاء ديون الحرب اقصد صاحبنا « لبنان افندي المرابي » لارى ما حل به من خوف اورجاء ويؤس اوهناء

فمشيت اليه وهو في قرية متعلقة في سفح الجبل قد مرت عليها سنوات الحرب فانتزعت منها معظم سكانها وهوت بكثير من جدرانها فتكاد لا ترى في ممراتها من سالك ولا في اراضيها من حارث او زارع

وفي ناحية من القرية بيت «لبنان افندي» يحيط به بستان من التوت وبعض الاشجار المثمرة . دخلت الدار واستأذنت عليه فقيل لي انه في مكتبه وانه اذا شئت قابلني هناك

فولجت المكتب فاذا رجل رقيق الجسم منحني الظهر في ثياب خلقة له انف يشرف على ذقنه قد ركبه نظارتان تبدو من تحتهما عينان صغيرتان تلمعان لمعاناً

حييته فنهض متثاقلاً واشار الى كرسي قبالته فجلست عليه واذا هو مشتغل في دفاتره يجمع ويضرب ويطرح وهو في قلق

واضطراب وعلائم الكدر بادية على وجهه المجعد

فقلت له : اراني وقعت عليك وقوع المطر في غير اوانه واخاف ان اضيع عليك وقتك فقال :

اف للزمان واهله . قد صدق من قال : ان الايام حبلى ليس يُدرى ما تلد . اينام المرء غنياً ويصبح فقيراً ؟ اترى هذه الاوراق – واشار الى اوراق بين يديه – فانها كتبت : تدفع ذهباً وترى انها ستدفع ورقاً . ورقاً سورياً . والورق السوري الان لا يوازي شيئاً من قيمتها . وقد طالما عللت النفس بتقاضيها ذهباً رناناً فذهبت الاحلام وذوت الامال وانتصر الفقير على الغني . واني لاراه ينظر اليّ نظرة شزراء ويبسم من طرف شفتيه . فبعد الموراتوريوم تأتينا الحكومة بما هو شر منه وتهدم ما بنينا من القصور الشاهقة بتلك الاموال الطائلة

فقلت له : هوّن ما عليك ولا تظهر الجزع والهلع فما انت بمظلوم . سل ضميرك عن كتابة تلك الاوراق وعن اصل ما لك فيها ترَ انك لا تزال من الرابحين . ضع يدك على قلبك وسائله عما كان يجول فيه من الرحمة ايام الحرب . وهل كنت تسعى حباً بالخير او وراء ذلك الطمع الاشعبي . هنىء نفسك بان هذا المال يدفع لك مع انه ملطخ بدماء كثير من الفقراء والهالكين .

ان الحكومة لم تنلك بمكروه ايها المرابي . اما ديونك التي عقدتها قبل الحرب فقد غيّرتها بعد ان ضربتَ رأس مالها بعشرة . فاذا قبضت قيمتها ورقاً تقبض لا غرو اكثر من قيمة ذهبها . اما المغبونون فاولئك المساكين الفقراء الارامل وارباب العائلات الذين قتّروا على نفوسهم وجمعوا الدرهم فوق الدرهم بعرق جبينهم ثم حملوا ذلك المال

الى بعض الاغنياء او الى بعض المصارف ليحفظ لهم هناك. ثم حرموا منه مدة الحرب وظلوا الى ان خمدت نار القتال فتلتها نار الموراتوريوم وها هم الان تدفع لهم اموالهم اوراقاً سورية ، هؤلاء هم البائسون. ولستم كذلك ايها المرابون الذين لم يكن لكم من هم الا امتصاص دم الفقير — والفقير مسكين ليس له صوت ولا يسمع له نداء —

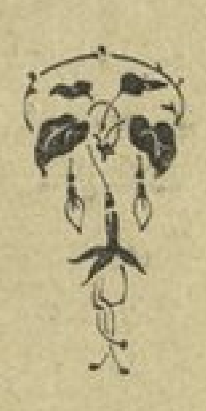
فحدق في المرابي ساعة ثم قال : قد احرجتمونا بدفاعكم عن الفقراء حتى ضاق صدرنا وملأنا سماع احاديثكم . ما كانت غنيمتنا من اولئك الناس الذين تدافعون عنهم ؟ اخذوا مالنا وتركوا لنا اوراقاً لا فائدة منها . ثم ماذا ؟ تقولون اننا قد استولينا على املاكهم . فتعال الى هذه النافذة وانظر

انظر أترى هذه القرية وهذه البيوت الخاوية فان جلها ان لم اقل كلها مرهون عندي . وقد دفعت على رهنها مالاً كثيراً اود لو ارجع لي ذلك المال واستردها اصحابها من غير ما ربح ولا فائدة . فانها لا تصلح لشيء ولا تغني عن شيء . فهي تزيد كل يوم خراباً وتهدماً . ولا ريب ان يأتي يوم تخر فيه الى الحضيض . فان سكانها منهم من هاجر الى وراء البحار ومنهم من قضى نحبه واستراح . وهناك دون المساكن اراض كثيرة هي رهن لي ولكن لا اجد في القرية من يصلحها ولا من يحرثها مع انها كانت قبل الحرب زاهية زاهرة تغل خيراً كثيراً

فقلت له : انتم معشر الاغنياء المرابين قد عوقبتم من حيث اذنبتم . فانكم اردتم ان تتملكوا البلاد وتسودوا فيها وتمرحوا في انحائها ما شئتم فاغتنمتم مدة وقوع الحرب لتستولوا على الاملاك والبيوت فكنتم تعملون على اهلاك الشعب ظناً منكم انه يخلو لكم الجو فيما بعد

فكان سكان القرى يلوون اعناقهم ويسلمون ارواحهم وانتم تنظرون اليهم مغتبطين في قلوبكم تحسبون في خلاياكم كم يزداد رزقكم من بعد موتهم وكم تكبر سلطتكم ويعظم سلطانكم. وقد فاتكم ان البلاد بسكانها. وان الرزق باليد العاملة. قد حطمتم آلة غناكم بيدكم واهلكتم ثروتكم من حيث اردتم احياءها فذوقوا طعم ما غرستم!

فاحنى رأسه وكأنه ندم على ما كان وما ينفع الندم!



لبناد

وقفت ببابه. فخف الى استقبالي باسماً مرحباً واوسع لي في صدر بيته وجلس اليَّ مقبلاً عليَّ بوجهه يصغي ويجهد نفسه حتى لايخل بحرف من ناموس الادب والضيافة

رجل في الستين من عمره مشرق الوجه وضاح الجبين يكاد النور ينبعث من عينيه السوداوين. تركت اشعة الشمس في جلده غشاء من سمرة على دم نقي وعضلات قوية لم يؤثر فيها كرور السنين. شارباه كانهما شفرتا سيف تبدو الابتسامة من تحتها كأنها بريق. صادق اللهجة جهوري الصوت يرسل كلامه موشىً بالفاظ كأنها زهر هضاب الجبل على مطارفها الخضراء.

اقام في بيت قديم ورثه عن اجداده وسيورثه بنيه. وبنوه كثيرون يقيمون معه يأتمرون بامره ويعملون برأيه. قد مهدوا ما تشعث من الارض المحيطة بهم وغرسوها وحرثوها واقاموا حافاتها ونقبوا في صخورها بعزم وارادة لا يوقفها حاجز ولا يردها مانع. واذا جاء الليل ومد

رواقه أووا الى بيتهم واجتمعوا مع عيالهم حلقة حول والدهم الشيخ وقضوا ليلتهم بالاحاديث والتذكرات واخبار الشهامة والشرف والبطولة والهمة والاحسان . ثم يتناولون احاديث القرى والمدن المجاورة ويأخذون بشيء من السياسة ثم لا يلبثون ان يتحولوا عنها الى ما يهمهم وما يكون عملهم في غدهم

جلست الى الرجل اسائله عن حاله وعن خطة معاشه وعما يرجو لوطنه وبلاده . فكان ينطق بقلبه . يرتفع صوته اذا ذكر الوطن وتدمع عيناه وينظر اليَّ ولا يراني لان افكاره كانت تتجاوز ما نحن فيه وتمر مع مخيلته على زمن عبر وايام مرت . وكأن كل تاريخ الجبل يجتمع لديه فيقرأ فيه من خلال الحوادث التي نقلها اليه اباؤه واباء اباءه والتي يتمثلها في كل خطوة يخطوها على ارض عاش وقضى فيها اجداده فانه يكاد ان يضع على كل شجرة من اشجاره اسم من غرسها

وهذا الرجل يعيش في وطنه ويحب وطنه ويسفك دمه في سبيله . لان وطنه شيء من حياته . لان ارضه مأوى اجداده ومسقط رأسه وشاربة عرق جبينه وشاهدة اتعابه ومرقده يوم يجتمع اولاده يكون حوله ويعولون

هذه الوطنية الشريفة تقرنها عزة النفس وشمم كأنما هو صنين في ارتفاعه لا يذل لغاشم ولا يتدنس بالدنايا ويفضل ان يُحمل على اعواد النعش من ان يلطخ رداءه بهون او عار كأنَّ في سفح ذلك الجبل عقبة كؤوداً لا يصعد فيها الا ما خف وطهر . واما ما ثقل ودنس فيظل في اعماق الوهاد تحوم عليه الثعالب والغربان

كريم المعشر انايف الحديث يخدم ضيفه بيده ولكنه لا يتدنى .

يحتفظ بمقامه وكرامته ولكنه يجمح كالفرس الجموح. اذا احسّ باحتقار غضب. وويل اذ ذاك لمن اثار الاسد في عرينه

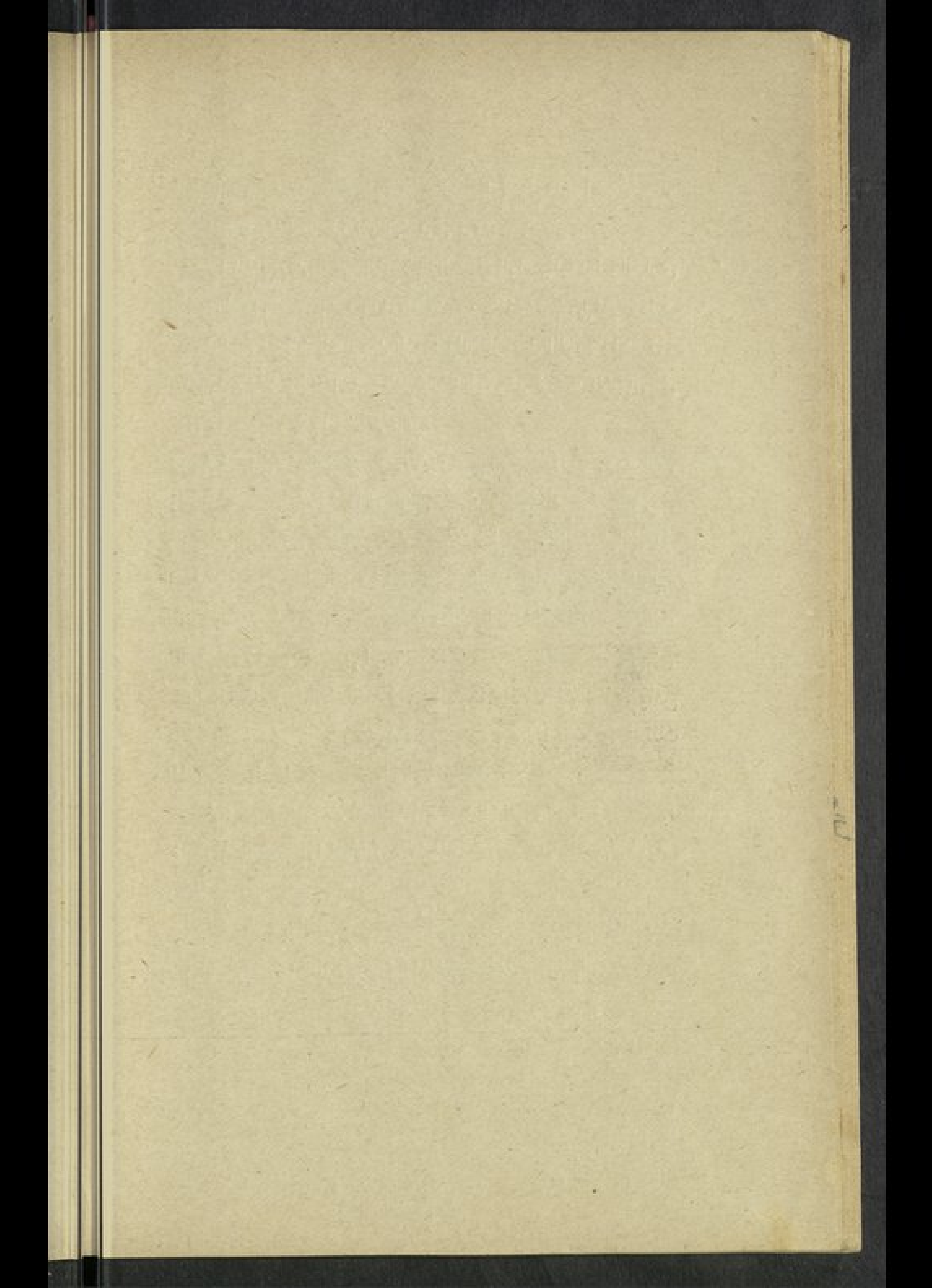
رسا الجبل بين البحر الابيض والسهول الواسعة الخضراء والبراري المقفرة الجرداء. فكم من مدنية مرت من دونه. وكم من امم وقفت عند اقدامه. فكان الصلة بين السهول والبحار. بين المغرب والمشرق. فجمع بينهما وعرّف الواحد بالاخر ولا يزال. وقد تركت الاجيال في عقول ذويه ذكاءً حاداً وفطنة غريبة

ثم ان «لبنان» شاعر. ومن لا يكون شاعراً اذا سكن لبنان، اذا اصبح وكحل عينيه ببهاء جنين تنبعث من ورائه اشعة الشمس، وتنشّق عطر الازهار المنتشرة في اودية الجبل ووهاده، ونظر الى البحر الازرق والسماء الصافية الاديم، واشرف على تلك القمم المزينة بالمعابد والقبب والاجراس، وتظلل بظل الارز الخالد المرتفع في الفضاء كأنه صلاة تصعد الى العلي!

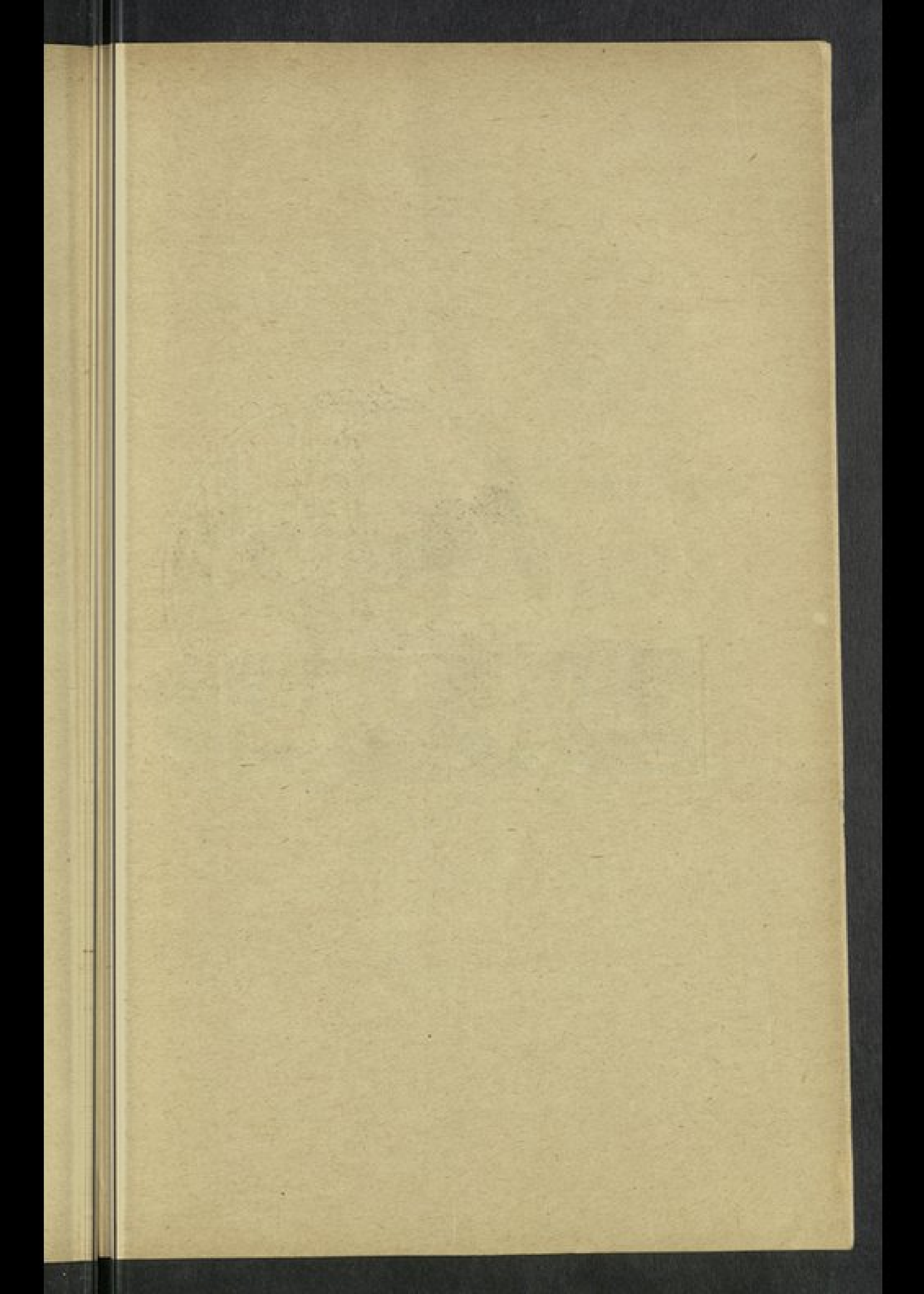
جالت بي تلك الافكار وانا جالس امام ذلك الشيخ وهو يقص علي كيف يعيش في مزرعته محادناً السعادة، هازئاً بما يجري في تلك المدن وعلى السواحل من خيول الشر والفساد

ثم نهض فمد الي يداً صلبة اثر فيها الشغل والعمل ولكنها يد تنتهي الى القلب فاذا لمستها تشعر بحرارة الصدق والاخلاص والشهامة والشرف والشجاعة

فودعته حزيناً وسرت بين الرياض كئيباً اجر رجلي الى المدينة واقول في نفسي: هذا «لبنان» ولكن اشباهه قليل..!




خواطر خواطر



الموسيقى

ايتها الموسيقى ! المنتشرة ارواحها في بطون الغابات ، المرفرفة ملائكتها فوق غوارب الامواج ، الكامنة جنودها في جوانب الغيوم وددتُ لو تُفرغين في شق يراعتي من زفير ارواحك ، وحنين ملائكتك ، ودويّ اجنادك ، لفظاً يكون على الآذان ، كالالحان

لفظاً يُنظم كاللآلئ ، تُناط بالاجياد

لفظاً يتمّ به وصفك ، ويحلو به مدحك

...

ايتها الموسيقى !

انت نشيد الطبيعة ، المتصاعد من فجاج الارض ، الدائر في اهتزازات الاثير ، المتّصل بعَنان السماء

ليس في الكون من ناطق او جماد ، الا وله موسيقاه ، يترنم بها ويرسلها صلاةً الى رب الكائنات

الطاير في وُكناتها ، والامواج المتلاطمة على قامات الصخور ،

السواقي في وهادها ، والغابات الممتدة في منفسحات الارض . كل الكائنات تصعد اناشيدها في الفضاء ، على اختلاف اصواتها ، وتباين نغماتها

...

خرج الراعي ذات يوم يتقدمه قطيعه الى منحدر الجبل
وكان الليل تكاد تذهب به هجمات النور
فالنجوم في ارتعاش واستتار
والطبيعة تنتفض ناهضة من رقادها
فجلس على صخره ملساء
وامامه وادٍ له فوهة كفوهة الجحيم ، تأخر فيه الليل فلا ترى فيه الا ظلاماً
وهناك الى يمينه غابة من الصنوبر كأنها اشباح هائلة تطلب قمة الجبال وقريباً منه ساقية صافية تنساب مترقرقة بين مشتبك القصب المائل ، واخذت الطير في نشيدها
وتنهد الوادي فمرّت انفاسه بين انابيب القصب وفروع الصنوبر وأصاخ الراعي
فاذا اصوات رخيمة ونغمات مختلفة تجتمع مؤتلفة وتمتد منتظمة ، ثم تدور ذاهبة في الفضاء صعداً كأنها بخور يتهادى على اجنحة الهواء ، او كأنها ارواح الارض تتسارع الى استقبال ملكة النور
فقال الراعي في نفسه : أمن القصب ينبعث هذا الصوت
ثم عمد الى قصبة فثقبها ونفخ فيها
وكانت اول آلة من آلات الموسيقى

. . .

واعتلى العربيُّ سنام ناقته ، وسار في الارض يجدُّ في مفاوزها ومرت الرياح بين كثبان ارمالها ، فاسمعت في سكون الليل ، تحت السماء الزاهرة ، وفوق بحار الرمال الجامدة ، صوتاً كأنه زفيرُ الايامى

. . .

فاصغى اليه ، وقد انتشى بخمرته ، وارتجفت انياط فؤاده به فاندفع يمدُّه حادياً :

خلِّ المطايا تنسم الجنوبا   ان لها لنبـأ غريبـا

. . .

ايتها الموسيقى !

ضواري الوحوش يسطو عليها لطيفُ اهتزازاتكِ

وصغارها تسكر بانغامك

فالسباع صاغرةٌ تمدُّ آذانها

والافاعي منسابةٌ تدور على نفسها رافعةً روٴوسها

فكيف بالاكباد ، وهي مستودع العواطف ومقر الشواعر

. . .

من اقاصي الارض الى اقاصيها

تلقَّنتكِ الشعوب وتنافست بكِ الامم

المصريون نقشوا آلاتكِ على راسخات آثارهم

والعبرانيون هدموا بابواقك عاليات الاسوار

واليونانيون فثأوا بك سَورة الجحيم

والاعراب روَّضوا بانغامك ضاريات السباع

داود تغني بمزاميره امام تابوت العهد
وهوميروس تغنى بالياذته على صخرة امام البحر
والرشيد في عظمة ملكه واتساع قدرته استسلم لنغمات ابرهيم الموصلي

...

فما انت ايتها الموسيقى ؟!
أأنت خمرةٌ تجتمع عليها القلوب ؟
ام لغةٌ تتفاهم بها النفوس ؟
الرقص حركات منتظمة تُسرُّ بها العيون ، وتُروَّض بها الاعضاء
والتصوير الوان مختلفة وخطوطٌ مرتبة تسرق بهـا الطبيعة وتحفظ بها الى قادمات العصور
والبناء عرش الفخار ، وتاريخ الدهر
اما انت فحركات النفس ، وتصوير العواطف ، وعرش القلب
اذا اهتزَّت اوتارُك ونفخت نایاتك ، سمع صداها في جوانب الفؤاد ، وارتفعت النفس على اجنحتها الى اعلى مراتب الهنا.
انت تتلاعبين بالنفوس !
فمن مسرَّة الى حزن ومن هوَس الى سكينة
كم من مرَّة أسلت ماء شؤوني وانت ترافقين ميتاً الى مقره الاخير ، ولالاتك انين كانين الثكالى
وكم من مرة اوثبت القلوب من صدورها ، في مرقص تتدفق فيه نغماتك ، تدفق السواقي ، فوق قاسية الصخور
وكم من مرة رفرفت باجنحة السلام والسكون ، فوق قلوب

تهيجت ، واعصاب تشنجت ، وعقول ترعزعت

فكنت لها كالنسيم العليل ، يهبُّ بعد القيظ ، او كسكون البحر بعد هيجانه

...

أما سمعتم ما فعلت بالجنود !! ، تدفعهم دفعاً الى القتال ، وترسلهم سكارى بين مشتبك النصال

دوي المدافع وصفير الرصاص ، صهيل الخيل وصلصلة السيوف ، انين الجرحى وضجيج العساكر ، تنبعث جميعها من ذلك السهل المائج يصاحبها درداب الطبول ، وصياح الاصوار

فيا لها من موسيقى تكون للجبان شجاعة ، وللشجاع اجنحة تطير به الى حرمة الوغى

...

واذا دخلتَ احدى الكنائس «الغوطية»

ووقفتَ متخشعاً في عظمة سكونها وارتفاع سمائها

واندفعت من صدرها اصوات ملائكية

وتنهّد الارغن في انابيبه

فارتجفتَ كأن قد نُفخ فيها روح الحياة ، فتنفست بين شجي ونغيم

فاجتمعت نغمات المرتلين ونغمات الآلات

واخذت تطوف في جوانب الكنيسة ، وتتجاوب من حنية الى حنية ، وتتهادى من سماء الى سماء

تتموج في الهواء كأنك ترى ارواحها

تعلو تارة وتنحط اخرى

وتدور كاللولب على نفسها ثم تذهب صعداً كأنها تطلب منفذاً الى السماء

وترافقها نفوس العابدين وبخور المذابح

إذن لشعرتَ بسحرها وجلال قدرها

. . .

لماذا ترتفعين الى السماء ايتها الارواح اللطيفة ؟!

انا هبطت من السماء ، والى السماء اعود

انا لغة الملائكة حول عرشه تعالى

أسمعنا الله اناشيدك ايتها الموسيقى في جنات الخلود وامام عرش النور

انت على الارض شيء من السماء

ولكن اين انت من موسيقى القائلين :

قدوس قدوس قدوس



الشرق

دعي كمَداً قد ساورتك كتائبُه

وهبّي فان الليـل مالت جوانبه

هوت بين اذيال الظـلام نجومه

فقرّ بهـا والفجر بالنور طالبه

كفاكِ فتـاة الشرق ندباً فانما

اضر به بعد الشقـاق نوادبه

وقفنـا لديه نفرك الكف حسرة

وملنـا الى هذا الزمان نعاتبه

ونسكب دمعاً من جفون سخيـة

ونهفو بقلب ليس يسكن واجبه

ونذكر اياماً مضت في غضـارة

بدا الشرق فيها في السماك مضاربه

عزيزٌ بعيد الذكر كالليث رابض

اذا ما اراد الامر هانت مصاعبه

ومدَّ اليه فاستطالت يمينه

ولو كان من هذا الوجود كواكبه

ومال به دهر تخرّ الى الثرى

وقد قُمت منه عند قبر تخاطبه

ولكنّ مجد الشرق ليس يعيده

رثاؤك والدمع الذي انت ساكبه

ولست بجيبه بما انت ذاكرٌ

ولو مُلئت مما ذكرت مكاتبه

فدع ما مضى واطلب من المجد صعبه

فلا خير في من لا تعز مطالبه

ولا خير في من يجلس العجز صاغراً

ويرضى بعيشٍ لا تسوغ مشاربه

غدا الشرق لا نور يضيء صراطه

وباتت من الانوار تزهو مغاربه

شقاق تمشى في البلاد فلا ترى

من الناس الا من تدب عقاربه

يحاول كل ان ينال مرامه

ولو هلكت اصحابه واقاربه

ولو شقيت منه البلاد ولو غدت

على وطني الهاوي تسود نوائبه

***

بني الشرق قد طال الشقاق بارضنا

يغالبنا حيناً وحيناً نغالبه

اذا ما رأى منا الى الحب نهضة

مشى الخلف حوليه ففازت ثعالبه

بربكم خلوا الشقاق فانما

اضرت بنا لو تعلمون تجاربه

ورفقاً باوطان يمزقها الهوى

كما مزقت صيد العقاب مخالبه

تصافوا قلوباً وانفضوا عن ذيولكم

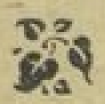
غبار خمول ضرستنا عواقبه

وسيروا مع السارين في طلب العلى

فمن كان هياباً فقد ذل جانبه

ومر عليه الناس لا يرحمونه

تصوتُ من تحت النعال ترائبه



الحنين الى الوطن

بدمعي رفقا يا حمامة تهتدي
فمهما يزد شجوا هديلك يزدد
وقفت على غصن كطوقك فاحم
ترصع من در الندى المتجمد
كأن دموع الليل قد علقت به
لما شاهدت من حزنك المتجدد
اذا زاره صبحاً فوادي لم يؤب
بغير حنين من فوادك مصعد
حنين له يهتز قلبي من الاسى
كهزة غصن مسه الريح املد
فانا تساوينا فراقاً ولوعة
وزدتك دمعاً لا يكفكف باليد

ابيت ليالي الطوال مسامراً

نجوم الليالي بين نسر وفرقد

فاشكو اليها بعض شوقي فتنثني

كاني بها إن اذكر الشوق ترعد

ترى من اعالي الافق ما بين موقفي

وبين بلادي من جبال واوهد

فتهفو كما يهفو الكريم فؤاده

اذا قيدت حرا سلاسل اعبد

...

واني اذا انشق الظلام وارسلت

ذكاء خيوط النور في كل فدفد

تذكرت طوداً كلل الثلج رأسهُ

وصبت عليه الشمس ذائب عسجد

تراه كعرش قد ثوى الحب فوقه

تحف به جند تروح وتغتدي

لها من نضيد الدر ثغر اذا رنا

اليه حديد الطرف عاد كارمد

وقوس كأن النبل فيه مدرب

فاني يكن قلب الرمية يقصد

رماني فاصمى ثم طوح بي بالنوى

فاصبحت في داءين مصب ومعبد

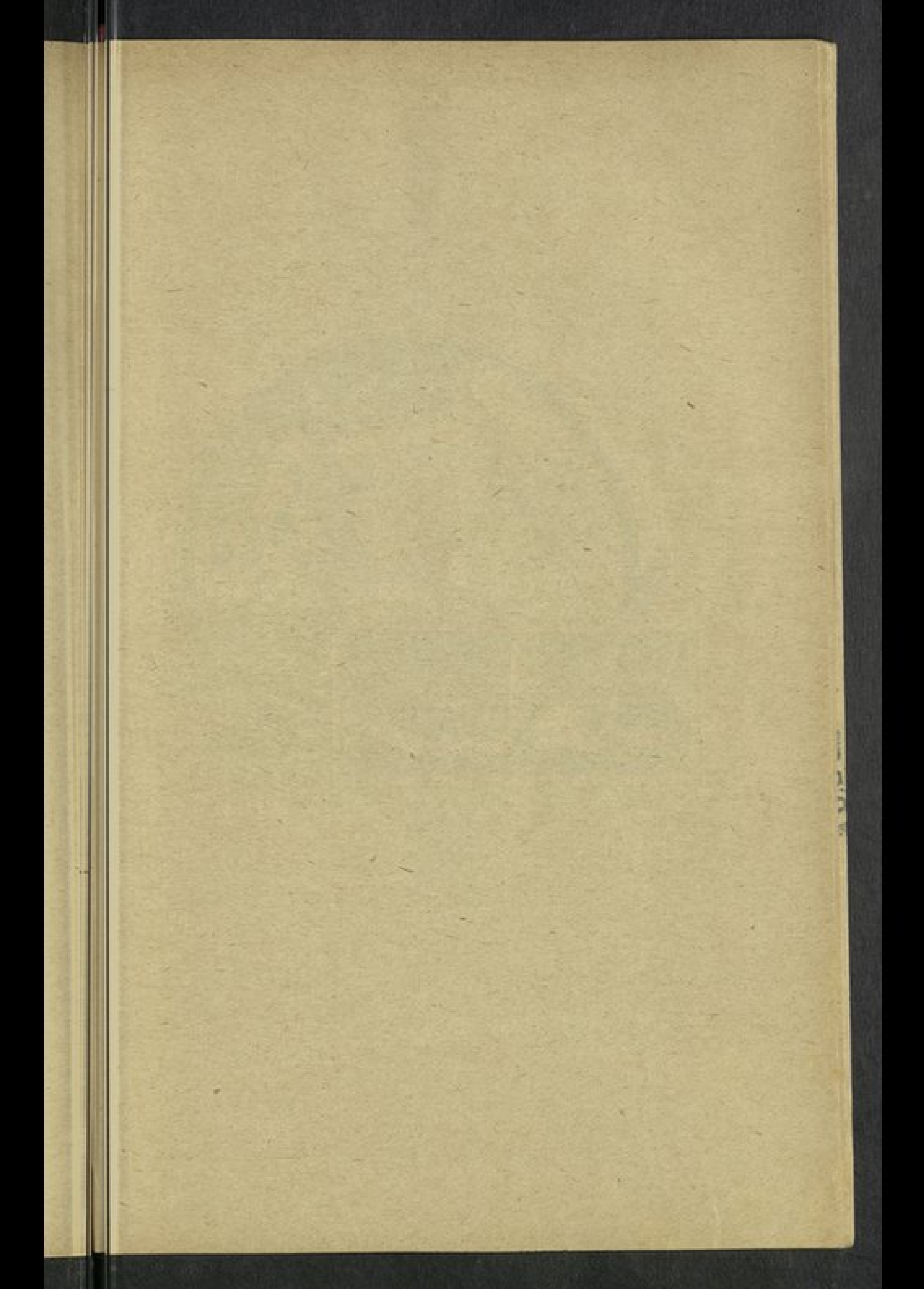
وقد ضقت ذرعاً بالفراق وبالهوى
فما حيلتي والصبر ليس بمسعدي ؟!

. . .

حنانيك ياريح الشمال الا اخبري
اذا جئتِ لبناناً بطول تسهدي
وحيّي به من كل صوب وقبلي
ثراه وبلي ارزه من تنهدي
وقولي له إن انظم الشعر سلوةً
فكم من دموعٍ في الدجى لم تنضد
أسح بها شوقاً اليه فمكتبي
عليه من الآثار منها ومسندي
وعودي الينا بالذي قد يسره
اليكِ فانا بانتظارك في الغد . .




مشاهد
عزت



الى المصايف

رأيت احد الرفاق يستعد للاصطياف . حركة وارتباك .
اهل بيتـه لا يستقرون على حالة من ذهاب ومجيء وغدوات الى السوق وروحات الى الخياط والخياطة . . . فساطين وقبعات وهنات صغيرة لا تحصى . . .

ثم اذا جاء وقت التحميل جمعوا اثاث البيت وما هناك من جليل وصغير وخفيف وثقيل واستودعوه مركبات النقـل على خطر من تحطيمه وبدون ضمانة ولا كفالة

ورأيت صاحبي فاذا هو يخطر ذهاباً واياباً والعرق يتصبب من جبينه يتأفف ويتضجر

وكان منه التفاتة الي فاقبل علي بوجه يتشكى :

— اف من هذا الاصطياف ! كم هنـاك من تعب فكر وتعب جسم . زد على ذلك الامر الاهم من كثرة المصاريف وغلاء الاجارات في محال الاصطياف المعروفة . ولولا هؤلاء الصبية الصغار

ونحافة بنيتهم وقلة لون وجوههم لما فكرت قط بمهاجرة المدينة وقد قيل : درهم وقاية خير من قنطار علاج ...

...

نظرت الى صديقي وقلت :

— اتقصد من الاصطياف غير الراحة واكتساب الصحة وتجنب المدينة وضوضائها ؟

— وما اقصد غير ذلك ؟!

— وهل يهمك القصور الشاهقة والملاهي العظيمة واحتشاد الناس في الممرات وازياء السيدات وموائد القمار واختلاط الحابل بالنابل من المصطافين المختلفي الاجناس والبلدان . ايهمك شيء من هذا ؟

— لا ارى في ذلك ما يهمني . فقد سبقت وقلت لك اننا نتطلب قليلاً من الصحة ولولا ذلك لما فكرت في الاصطياف هذه السنة ونحن غائصون في الازمة الى رقابنا . اننا لنتكبد المشاق الكثيرة في هذا السبيل

— اذا كان الامر كما تقول فما يدعوك الى هذه المصاريف التي لا فائدة منها للصحة التي تنشدها ؟ فالقبعات والفساطين وكثير من الاغراض التي يجمعها اهلك بشق النفس وتفريغ الجيب وما تنقل من الفرش والرياش مع ما في نقلها من الخطر عليها والمصيف الذي تؤمه حيث يجتمع شذاذ الناس وحيث اسباب الانفاق لا تعد وحيث تجاريب الشيطان في المقامرة والشرب واللهو هي اكثر واقوى ، كل هذا لا يزيد في كرويات دمك نقطة واحدة بل يعمل على

تنقيصها

وقريباً من هذه القرى الكبيرة ، التي قد تكون مفسدة للاداب والصحة والجيب ، ترى صغيرة لا تبعد عنها الا القليل ، فيها الماء العذب والهواء العليل والعزلة المفيدة والمناظر الرائعة والبيوت اللائقة وليس هناك مصاريف باهظة ، وليس هناك تجاريب من الشيطان ، وليس هناك ما يدعو الى الاسراف والقبعات والفساطين ، وليس هناك الاجارات الفاحشة . بل هناك الصحة التي تنشدها . فلمَ تحول نظرك عنها ؟

كان المصطافون قبل الان يتطلبون الاماكن التي يسهل الوصول اليها والتي على ممرات القطار اما اليوم وهذه السيارات لم تدع محلاً في لبنان الا وصلت اليه فاصبح من الحمق ان نظل كالنعاج نتبع من تقدمنا ولا نعمل الفكرة فيما يخفف عنا ثقل المصاريف ويضمن لنا الصحة المنشودة

فهزَّ الصديق رأسه وقال :

— ومن لي بمن يقنع اهل بيتي ؟ !



الاصطياف

من المدينة وضوضائها · والشوارع وغبارها · والمكاتب وارقامها والتجارة وهمومها

الى رابية عالية هادئة صامتة · متوجة بالصنوبر الغض يلتف من حول بيت صغير معمم بالقرميد الاحمر ينفسح امامه الافق الواسع ويطوف به اريج الازهار وتغرد له الاطيار في الاسحار · معلق بين الارض والسماء تكاد تندى فيه متاعب الحياة واوبئة المفاسد والاخلاق

الى النهوض في الصباح على نشيد البلبل وهينمة الاغصان · ترسل اليك الشمس من النافذة خيوط نورها تلمسك في الجبين · تقبل شعرك · تقول لك انهض وانظر ملكة البهاء صاعدة في حللها الذهبية من وراء صنين · ترافقها الغيوم البيضاء سابحة كاجواق الملائكة من حولها · والجبل يرتدي معطفاً من الالوان · تتغير من آن الى آن · والوهاد تنفث ما بقي فيها من ظلام الليل · والاجراس ترن بعيدة وقريبة تنادي الطبيعة أن هبي من رقادك · والديك يتلو صلاته امام صفحة الفجر

الى كتاب ادبي تتأبطه الى عين خرّارة . بين صخور قاتمة . في ظل سنديانة هرمة . تقرأ تارة وتفتح تارة صدرك للنسيم العليل تتزود منه صحة وعافية وترسل طرفك الى قرى في سفح الجبل امامك كانها قطيع الاغنام . داهمها الذئب فهي متلاز بعضها الى بعض ضمن إطار من الاشجار الخضراء . او من حقول القمح الذهبية

الى بندقية تغدو بها الى الادغال الى الاودية العميقة والقمم العالية تترقب الطير وتتبعه . تتعلق اذيالك بالعوسج وتتسلق الحافات . وقد تذل بك القدم وقد تتعب سدى فتصوب فوهة البندقية الى هدف وتطلقها فيرن صداها في الوادي ويمتد ويتجاوب من مكان الى مكان كأنه افاق في بطنها طائفة من الجن فهي تتصايح وتتنادى وتتشاور على من نغص عليها سكونها وسباتها . ثم تجلس بعد التعب وتتصفح الطبيعة وما فيها من جمال وجلال . او تهوي الى نبع ترتشف منه الذلال بجفنتي يديك وتبلل صدغيك بمائه البارد

الى جلسة على قمة الجبل عند المساء والشمس مائلة الى الغروب تتدانى قليلاً فقليلاً من الافق وامامها غيوم مختلفة الالوان والاشكال تارةً تشبه جيشاً وطوراً تشبه مسبعة فكانها صور متحركة على ملاءة اللانهاية والبحر كالصفحة الفضية ممتد واسع قد قسمته الشمس بصولجانها الذهبي فتتنازعه الغيوم ترد عن البحر نور الشمس والشمس تنفذ فيها سامها فتتساكب الدماء فيتضرج الافق فتهوى الشمس مغلوبة على نفسها كانها تنطفئ في عباب الماء وكانها وهي تودع الطبيعة متألمة حزينة تقبل نوافذ بيوت لبنان وتقبل ثلج صنين فتترك من نفسها شيئاً يبقى فيها بعد قضائها

الى سمرٍ تحت النجوم الزاهرة والقمر يتهادى بينها كالفتى الغر بين جماعة من المتظرفات وبيروت ممتدة امامك تشع بالانوار تنفصل منها من حين الى آخر نجوم السيارات فتختفي في منعطفات الطرق ثم تبدو على اكتاف الروابي ثم تسمع دويها بين يديك

وانت طائر على اجنحة الخيال اذا بصوت رخيم يمزق اسدال الظلام وينبعث في سكون الليل فترتجف احشاؤك وتظل به مسحوراً

الى اللذة النفسانية والمشاهد الطبيعية والصحة والراحة والهناء.

لا الى مائدة خضراء تحف بها الوجوه الصفراء والاعين الملتهبة والقلوب المضطربة والايدي المنقبضه يجلس اليها الفتى غنياً سليماً ويقوم عنها فقيراً مريضاً

لا الى مراقص تفسد الاخلاق وتسلب العقول وتدور بالقلوب كما تدور

لا الى الكاس والطاس والتمرغ في حمآت الخمر يسخر بك المارة ويكرهك ذووك



في القرى

في قرى لبنان بعض من الناس لاعمل لهم الا الجلوس في الدكاكين والخوض فيما لا منفعة منه ولا فائدة

يجتمعون حلقات امام كاسات العرق او الخمر ويأخذون في التذمر من الاحوال الحاضرة ووطأة الغلاء وقصر اليد . ويتدرجون من ذلك الى الانتقاد . فينحون باللائمة على الحكومة ومأموريها ، ويذهبون في الموضوع كل مذهب حتى يفضوا إلى سن القوانين وابداء الاراء وتخطيط المشاريع وعزل الحكام وتقويم اودهم والى ما هنالك من ضروب الحديث وهم جلوس لا يبارحون اماكنهم الى ان تهوي الشمس في اليم وتهوي بهم الخمرة في الطريق يحملون الى بيوتهم او يجرون اليها نفوسهم

وما تطل الشمس من وراء الجبل حتى يرجعوا الى ما كانوا عليه

في امسهم فيعالجون من المواضيع ما قارب تلك . فيقولون ان الارض لا تعود على الحارث باتعابه ومصاريفه . وان ارض الجبل بخيلة ناشفة قاحلة . وان التوت ييبس على جذوعه وان الريل والخراب يهددان هذه البلاد . وان لا حياة الا بالمهاجرة . وهكذا بين الكاس والطاس تذهب ايامهم سدى يتقوتون بما يرسل لهم من وراء البحار . وينتظرون يوم تقلهم تلك الباخرة الممتدة في عرض اليم الى بلاد الخير والذهب

وفي كل صباح يشرف الرجل منهم على املاكه فيراها في حالة يرثى لها فيهز رأسه ويبرم حلقته من منادميه وهلم جراً . . . والارض موات لا يلتفت اليها . . .

. . .

لله ابو كم ايها المتشائمون المتكاسلون فما ضركم لو ذهب كل منكم الى عمل يعود عليه بنفع ويكون قدوة صالحة لغيره ؟ لو انصرفتم الى اشغالكم لقللتم من هذه الشمشقة الفارغة ووجدتم في العمل لذة ونفعاً لا تجدونهما في القال والقيل

لكل واحد منكم ارض حول بيته وكثير منكم من له الاراضي الواسعة الارجاء وهو لا يهتم لها . فلو حرثها واعتنى بها لعادت اليه بفائدة قد تكفيه مؤونته مدة سنته . وهب انها لا تعود اليه بالنفع الذي يرجوه فانه يحافظ عليها من الخراب والدمار وينجي من الموت تعب سنين عديدة شقي بها اهله وذووه

لو عمد كل سكان القرى من رجال ونساء الى عمل مفيد من

زرع او صناعة لنتج عن ذلك مجموع عظيم يسد ثلماً كبيراً من عجز حاصلات البلاد . فانه من القطرة والقطرة تجتمع السواقي والانهار وبالعمل الصغير تقوم المشاريع العظيمة

ولكن من تنادي فان من الناس في بلادنا من لا يرضى الا بالثروة العظيمة والجاه العريض ولكنه ينتظر ان يهبطا عليه من السماء في قفة وهو بين النارجيلة والراح



مرض السياسة في القرى

قليل من السياسة كقليل من الخمر يسر ولا يضر

ولكن اذا انقطع المرء عن كل عمل وغفل عن اهل بيته وترك رزقه يسود فيه الخراب وينتابه الشوك ليتلهى بالسياسة الخرقاء فذلك حمق ليس بعده حمق . يسهل سبيل الفقر والبغضاء والعداوة الى صاحبه . يُصبح واصحابه كثيرون ويمسي وكلهم اعداء له

لا بأس في قليل من السياسة يتسلى بها سكان القرى في ايام الاحاد والاعياد امام معابدهم او في الساحات العمومية . ثم اذا انصرفوا عنها وغابت شمس العيد عاد كل عامل الى عمله لا يفتكر بذلك المكروب المؤذي الذي لا ينتج الا الهم والعداء

في القرية ثلاثة امور يدور عليها حديث السياسة وهي المشيخة ورئاسة البلدية وثالثها في بعض القرى كنيسة البلدة او خدمة الرعية

فهذه الثلاثة الامور ينتصب لها في بعض الاحايين رجال لا شغل لهم . يتعيشون من غلة ارض ورثوها عن آبائهم او من دراهم

يتاجرون بها بالربا وما بقي لهم من الوقت يصرفونه في السياسة

يجتمع هؤلاء البطالون كل يوم في مكان وينظرون في طريقة يقتلون بها وقتهم فتارةً يتفقون على خلع شيخ القرية وطوراً على تغيير رئيس بلديتها . فيعدون لذلك عدهم ويرسمون خططهم فينتشرون في المتصرفية ثم يتعدونها الى الحكومة المركزية ولا يزالون في التردد الى الحكام والتقرب منهم واقناعهم بكذا وكذا حتى ينالوا بغيتهم . فيرجعون سكارى بخمرة النصر تكاد تنشق خدودهم كبراً وصلفاً ويرفعون الزين وينورون في الليالي ويرسلون في الفضاء سهام الفوز الباهر ثم يرقدون على اكاليل نصرهم

فينهض الحزب الذي غلب على امره ويعمل في الخفاء ويسعى كما سعى معارضوه ولا يزال حتى يجد وسيلة يتمكن بها من قلبهم عن كرسي مجدهم

وهكذا دواليك دواليك

والقرى في لبنان في حالة يرثى لها من الفقر والفاقة ، وبعض المساكن لم تترك الحرب منها الا جدراناً قائمة لا سطوح ولا شبابيك فيها ، والاراضي مهملة لا تمد اليها يد ولا ينظر اليها، وبعض المتمولين يظلمون الناس ويفتخرون على العامة بان لهم الحول والصول والكلمة النافذة عند الحكام ويتاجرون باوقاتهم ويسممون قلوبهم وعقولهم ويعرضون عليهم كل يوم العرائض يوقعونها لاسقاط متنفذ او تنفيذاً لغاية ويلقون الشقاق بين الاهل والاقارب والجيران

وقد يتولد عن ذلك القتالُ والسباب والعراك والضرب . وقد يلجأون الى الخناجر والمدى . وقد يستخدمون المسدسات فتجري

الدماء اكراماً لعيون فلان وفلان وتنفيذاً لغاية فلان ...

والشعب اعمى ، او انه جمل عظيم الجثة لكنه يقاد بقود صغير . فبدلاً من ان يوصد نوافذه وبابه ليل نهار دون ريح السياسة المشبعة جراثيم قتالة تراه يجلس على عتبة بابه يفتح لها فمه يتنشقها كانها النسيم العليل وقد ينسى نفسه على هذه الحالة سحابة يومه فيهلك زرعه وتجوع بقرته ويفطس حماره

فلله من حالة يرثى لها !

رفقاً بهذا الشعب ودلوه على طرق العمل لا على طرق الكسل . وما تصرفون من المال بل ما تبذرون منه في سبيـل ارغام انف او بناء فخر كاذب ادفنوه في ارزاقكم تتلهوا به عن الاحاديث الفارغة ولا يلبث ان ينبعث ويأتي معه بمال كثير

انكم تنفعون بلادكم بعمالكم لا بلسانكم



اسماء الشوارع في بيروت

سألني احد الغرباء وكان زار بيروت قديماً : ما هذه الاسماء التي اراها في شوارعكم وكيف ولدت . فانه يصعب معها ان يهتدي الغريب مثلي الى المكان الذي يقصده . فقد نُقلت بعض الاسماء من محلاتها الاولى ونزلت حيث لم تألف النزول منذ خلقت هذه المدينة . ومن المضحك ان تركب مركبة وتقول للحوذي سر بي الى المحلة الفلانية حيث لي اصحاب واصدقاء . فيوقفك في محلة هي على خمسة اميال من المحلة المطلوبة . واذا غضبت يقول لك . انظر الى الواح الشوارع فهذه هي المحلة التي تريد

واراد الغريب ان يتابع حديثه مستخفاً مستهزئاً بالمدينة وبابنائها فبادرته قائلاً الزم مكانك ولا تتعدَّ حدك . فانكم معشر الغرباء لا تدخلون بلداً الا بدأتم في انتقادها وتفضيل بلادكم عليها . واذ نحن لا سبيل لنا لتفنيد ادعائكم في اوطانكم نسكت على الاذى ونغضي على القـذى . ولكن اعلم أن ليس ما يحمـل على الضحك

فيما تراه من اسماء الشوارع فان لها تاريخاً جليلاً يجدر ذكره لك لاطلاعك على تفنن البيروتيين في اعمالهم واقتدارهم على الاختراع وسبقهم جميع العالم فيما يعود عليهم بالفخر والفضل . واني لاؤكد لك ان ما من مدينة تريد منذ الان ان تسمي اسواقها الا اقتفت في ذلك خطة بيروت

واما تلك الخطة فاسمع اقصها عليك :

لما ولى الاتراك الادبار وحل محلهم الحلفاء تألفت لجنة سرية للبحث في تسمية الشوارع وبقيت هذه اللجنة تسعى وتجتهد الليل والنهار في مكان خفي خوف ان يطلع على اعمالها احد الناس فيفشي اسرارها . وما زالت على ذلك حتى توصلت الى طريقة غريبة لم يسبقها اليها احد من قبل

اما تلك الطريقة فلسنا نعرفها بتمامها . وفي المدينة ثلاث روايات مختلفات

اما الرواية الاولى فهي :

اتخذت اللجنة خريطة عظيمة لمدينة بيروت ووضعتها امامها على مائدة عريضة طويلة . وكانت الاسواق والشوارع ظاهرة واضحة عليها . ثم عمدت الى كتب الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والادب ولم تدع فرعاً من العلوم يعتب عليها . فانتخبت اسماء كثيرة وضعتها في سلة وصعد احد اعضاء اللجنة الى سطح الغرفة حيث كانوا مجتمعين فنقب السطح وسوى فيه كوة من فوق المائدة التي عليها الخريطة ثم اخذ يرمي اسماء الشوارع فحيث وقع الاسم ثُبِّت بدبوس وهكذا دواليك دواليك الى ان فرغت السلة وامتلأت الخريطة

لكن هذه الرواية لها كثير من المعاكسين . ومن اقوى حججهم

انه لو كانت قصة نقب الغرفة صحيحة لاستولت مدينة بيروت على تلك الغرفة وجعلتها اثراً تاريخياً يزوره محبو الاثار ويعجبون لفطنة تلك اللجنة

اما الرواية الثانية فهي: ان الاعضاء عندما اجتمعوا جعلوا الاسماء في كيس واخذ الواحد منهم يضع اصبعه على شارع من شوارع المدينة وينتشل الاخر ورقة من الاوراق المكتوبة عليها اسماء تلك الشوارع . فالاسم الذي كان يخرج كان ينسب اليه الشارع الموضوعة عليه الاصبع . وحتى ازيدك ايضاحاً اذكرك بسحب «اليانصيب» فان تلك الطريقة كانت تشابهه تماماً

ولهذه الرواية معاكسون ايضاً . ومن حججهم ان اللجنة لم تكن مؤلفة الا من رجال متقدمين بالعمر ليس بينهم صبي ومن المعلوم ان في مثل هذه الظروف يكلف ولد صغير سحب الاوراق لانه يكون طاهراً نقياً لا يعرف النفاق ولا المخادعة

واليك اخيراً الرواية الثالثة: وهي ان الاعضاء كانوا يأخذون مناوبة كتاباً من كتب كثيرة امامهم فالعضو الذي يصل اليه الدور يفتح الكتاب ويقرأ من اول الصحيفة حتى يصل الى اسم علم فيقف عنده ويضع اصبعهُ عليه ويغلق الكتاب ويقول لرفاقه باسماً : ليشر احدكم الى السوق الذي يجب ان نعطيه الاسم الذي تحت اصبعي فينهض احد الاعضاء ويدل على السوق وهكذا بالمناوبة كل واحد بدوره

وكان بين الاعضاء من يحب الآداب ومنهم من يحب الفاكهة وغيرهم من يحب غير ذلك . فكانوا اذا وصلوا الى كلمة تدل على فرع من فروع الادب او ضرب من الفاكهة يضعون اصبعهم

عليها وينتخبون لها السوق وعلى هذا ترى على الالواح شارع الشعر وشارع الادب وشارع الليمون ...

ومن اسماء الشوارع ما هو مغلوط في كتابته فلا عجب لان الاسم عند هبوطه من سقف الغرفة « على الطريقة الاولى » كان يطرأ عليه بعض الطوارىء فيحرّفه او ينقصه فتنقلب الذال زاء او تمحى بعض حروفه او تتبدل فالعسلي تصير « الاسبح » والعذراء تصبح العزراء

اما ترجمة الالفاظ الى الفرنساوية فقد تكبد فيها الاعضاء عناء كثيراً لان طريقة « السحب » لم تأت بفائدة تذكر فانهم جربوا بان وضعوا بعض الاسماء الفرنساوية في سلة وبعض الاسماء العربية في اخرى وسحبوا اسماً من هنا واسماً من هناك فلم تتفق الاسماء . وخاف الاعضاء ان يجلب ذلك اللوم عليهم فعمدوا الى طريقة ابسط وهي ان ينتخب كل واحد منهم لفظة افرنسية توافق اللفظة العربية ولما كان بعض الاعضاء لا يتقنون الترجمة فقد حدث فيها بعض الخطأ وهو نافع وليس بضار اذ زادت منه اسماء الشوارع فاصبح لبعضها اسمان الواحد بالعربية والاخر بالفرنساوية

اما ايها الصديق وقد عرفت كيف ولدت اسماء الشوارع في بيروت فاياك ان تضحك عند قراءتها والسلام



بين النافذتين

في الجانب الشرقي من بيروت محلة غنية بحدائقها وقصورها تشرف على البحر وتعلو من فوق المدينة كانها عرش يتربع عليه الموثرون مطلين منه على الشعب المتزاحم وراء طلب العيش، المزدحم في اسواق الجد، المتزوي في اكواخ الشقاء

وبين تلك القصور العالية الانيقة دار يأخذ جمالها الالحاظ بثوبها الابيض المزركش على جوانبها وفي اعاليها كأنه تخريم جادت به ابرع عاملة صناع . تحف بها حديقة واسعة الارجاء فيها النخيل والاشجار الغريبة وتقاطيع من الازهار رتبت على صور هندسية بين مربع الزوايا ومثلثها ، فمن ينظر اليها يحسبها السجادات العجمية ولا سجادات هناك

وربُّ البيت رجل في الاربعين من عمره خلق غنياً ، يأتيه ريع املاكه وهو في عقر داره ، ينام النهار ويسهر الليل على خلاف سنة الله وسنة البشر . تزوج غنية مثله اتبعت خطته في عيشه فلا يجتمعان

الا على مائدة العشاء . وقد لا يكون اجتماعهما الا نادراً فيتبادلان الكلمة والكلمتين ثم ينهض وتنهض ويذهب كل في سبيله

ولهما ولدان بنت وصبي كأنهما ملاكان بشعرهما الذهبي وزرقة عيونهما ، الا انهما تُركا للخدم فلا يعرفان من الوالدين الا الدراهم والثياب الفاخرة واما العطف والمحبة والاعتناء بنفسيهما فذلك امر لم يكن لهما نصيب فيه . واذا اختطفا قبلةً من امهما او ابيهما فهي بريق من السعادة لا يلبث ان يضمحل تحت غياهب غيوم الاهمال

ولهذين الولدين غرفة واسعة فيها ست نوافذ تطل على الحديقة ، فُرش صحنها بالطنافس العجمية وعُلقت على جدرانها السجوف الحريرية ونُقش سقفها بابدع المشاهد والمناظر فيها الرياش الفاخر من مقاعد وكراسي ومناضد ومساند وتماثيل صغيرة من العاج والشبه والى ما هنالك من دلائل الثروة والذوق أُعدّت للولدين يلعبان بها ويجلوان العرائس ويسيّران القواطر ويتصيدان العصافير الاصطناعية

وكان بعض الخدم من ذكور واناث يشاركونهما في العابهما ثم يتلهون عنهما بامورهم ودواعي خدمتهم . اما الوالدان فهما نائمان او في سهرة عند الاصحاب او الجيران

وما كانت تلك السهرات ؟

تلك السهرات كانت تبتدىء بالنميمة وطعن الصديق بصديقه والمرأة بجارتها ثم تتناول الازياء ثم تنتهي حول مائدة القمار ، فيكون لهذه المائدة القسم الاوفر من الوقت لا يتركها الجالسون اليها الى ان يؤذن الديك بهجوم الصباح

. . .

وفي الجهة الغربية من القصر عند آخر الحديقة بيت صغير يتألف من غرفتين يتعدى عليهما الهواء والمطر والشمس متى شاءت، نوافذهما عارية من الزجاج والستائر لا تحبس النظر عما في داخل السكن ولا تضن على العابر بما يجري فيهما

وما عساها ان تخفي وليس هناك من متاع الدنيا الا ما لا بد منه من حصر وآنية ومقعد خشبي تجتمع عليه العائلة . اما الجدران فاعرى من صفحة اليد تبهر العين ببياضها ويرتجف القلب عند النظر اليها في ايام الشتاء الباردة

غير ان ذلك البيت فتح ابوابه على مصاريعها للسعادة فولجت وطاب لها المكوث، فمكثت بين رجل عامل وامرأته وطفلين صغيرين تنثر الصحةُ من وجناتهما حبّ الرمان . فدفء قلبهما بالمحبة والهناء ينسيهما شظف العيش وقرس البرد واذا برد جبيناهما ردت اليهما الحرارة قبلات متتالية من الاب والام معاً فهما في غبطة مستمرة تسمع صياحهما على مسافة ميل ولضحكهما رنة في الآذان كرنين النواقيس

وما كان الولدان الغنيان يشاركانهما في الالعاب ولا في السعادة، فاذا رأياهما في الثياب الخلقة والاقدام عارية تدوس الحصى غير هيابة قلّب كلٌ من الولدين شفته وابتعد كأنه يتجنب جراثيم الامراض، وما يتجنب الا طريق السعادة

. . .

وكانت ليلة رأس السنة. . . .

ركب الغنيان سيارتهما الى السوق وملآها لعباً مختلفة من خيل

وعرائس وطيارات ونفاخات تجاورها علب الملبس والشوكولاته والساعات الذهبية . وأتيا بهذه الهدايا الفاخرة التي في ثمنها قوت الف فقير والقياها الى ولديهما القاء المستعز الذي اتى عملاً مجيداً كانهما يقولان : خذا واسعدا

ولكن الولدين اللذين تعودا البذخ والترف منذ انشقاق بصرهما نظرا الى تلك الاعلاق والطُرَف نظرة الملول الذي يعرف ما وراءها من ساعة تمضي بصحبتها ثم تترك مع المهملات في زاوية من زوايا تلك القاعة الواسعة

واخذا يتحصانها واحدة واحدة كانهما يفتشان عن شيء لعل الوالدين تركاه فيها ، ألا وهو قليل من العطف والحنو ! .. ولكن هيهات ما يطلبان ! فان الوالد بعد ان تبسم لهما انسحب بنظام كمن قضى واجبه وافلت الى حيث تدعوه المائدة الخضراء

وما عتمت الام ان اغتنمت فرصة اشتغال ولديها باللعب حتى استلمت الباب وولّت

فما انتبه الولدان الا وهما وحيدان بين لعبهما والخدم واقفون ينظرون ويتغامزون على سلوك الوالدين

هي لحظة انقبض فيها القلبان الصغيران وشعرا بفراغ عظيم لا يدريان بما يسميانه . فانتشرت على الجبهتين سحابة من الكآبة واخذ الصبي يرفس تلك اللعب برجله ويبعثرها ويتمشى ورأسه مطرق . وانتبذت البنت الى مقعد بعيد فجلست عليه وطوقت ركبتيها بمعصميها واسندت اليهما رأسها فكانت تمثال البؤس الهادي.

...

تلك القاعة على نفاسة رياشها ولمعان انوارها فقيرة الى الحب مظلمة بغياهب الكآبة، وذلك البيت المجاور غني بالسعادة رغم ضيق يد سكانه فانك كنت ترى شعاع الحب فيه ينير ظلماته وغنى السرور ينوب عن الطنافس والسجوف

رجل جالس على المقعد الخشبي يدخن بنرجيلته يتناوب اليه الولدان فيصعد الواحد الى ركبته ويطوق الاخر عنقه ويستشيرانه في هندسة غرفة يبنيانها من « ورق اللعب » وهما يضحكان ويصفقان لكل ورقة وضعاها او حركة اتياها ، والام تحتاطهما بجناحي الحنو والمحبة تقرأ في عينيها السعادة والشكر لمن منَّ عليها بهما

وليس هنالك لعب غالية الاثمان ولا علب من الملبس والشوكولاته، وغاية ما هنالك «عروسة» تدغدغها الابنة من وقت الى وقت وترقصها وتوقفها مواقف غريبة الوضع فيقابلها الضحك المتمادي والقهقهة حتى ليمضي الزمن الكثير ورنين ذلك الضحك متواصل بين علو وانخفاض يوقف المارة ويسترعي انتباه الجيران

. . .

ولا بدَّ ان وصل صداه الى أذنيَ ذلك الولد الصغير المتمشي في الغرفة الفخمة تجاه البيت الحقير فانه قد اقترب الى النافذة وارتفق عليها واخذ يرسل نظره والاسى ملء جبينه والحسرة تجول في فؤاده

. . .

وانتصف الليل وعادت الام من سهرتها ونظرت فاذا غرفة ولديها لا تزال مضاءة . فدخلت بهدوء . فاذا ولدها على النافذة وابنتها نائمة رأسها على ركبتيها ، واذا اللعب منتشرة في صحن القاعة مبعثرة

وبعضها مكسر . فاقتربت من الولد فاذا هو ينظر الى البيت تجاهه واذا الدمع في عينيه . . .

فارتجف قلبها وفهمت . . .

فضمت ابنها الى صدرها واندفعت من فيها قبلات متتابعات خالطها الدمع والحب وحرارة لم تكن تشعر بها من قبل ، وامتزجت الدموع بالدموع الا انها كانت دموع غبطة وسرور . . .

وكانت اول مرة تفاهم فيها القلبان



بعض النساء

ان الغاية القصوى التي تسعى وراءها النساء في بلادنا هي ان يجلسن في بيوتهن من دون ما عمل ولا هم . يتكلن في لباسهن على الخياطات . وفي مآكلهن على الطهاة والخدم وفي تربية اولادهن — ان كان لهن اولاد — على المربيات والمرضعات . واذا زوجت امرأة ابنتها فاول ما تفكر فيه امر راحتها عند زوجها وهل في امكانه ان يتخذ لها الحشم والخدم و « يصمدها » في زاوية من زوايا بيته لا يطلب منها عملاً ولا يتقاضاها واجباً . فكأنَّ المرأة قد خلقت للزينة وحفظ النسل ليس الا ...

ولكن لو توجهنا بلحاظنا نحو البلاد الاوروبية لرأينا للنساء المنزلة الاولى في بيوتهن يدبرن شؤونها ويسهرن على نفقاتها ويتولين امورها . كانما البيت مملكة صغيرة والمرأة مليكة عليها فهي لا تأنف من مساعدة الطاهي في مطبخه والخادمة في تنظيف البيت وترتيبه ومرافقة الخادم الى السوق تشتري اغراضها تراها بعينها وتساوم عليها وتتخير الافضل منها . وهي تهتم بتربية اولادها وقد ترافقهم الى المدرسة وتذهب معهم الى التنزه وتقسم اوقات عملهم فلا تدعهم يلهون فيما لا فائدة فيه او يكون مضرة لهم . واذا وجدتْ بعد ذلك متسعاً من الوقت

تغتنم الفرصة للقيام بعمل يعود عليها بنفع كالخياطة والتطريز اوخلاف ذلك والا اشغلت وقتها بمساعدة الفقراء وعيادة المرضى وتوزيع الاحسان

هذا اذا كانت المرأة في بحبوحة من العيش تلهيها عن التفكر بامر نفسها . واما اذا كانت من الشعب العامل فلا تتكل على تعب زوجها وتحصيله لتعيش متنعمة خالية الفكر رخصة الانامل طرية اليدين . بل انها تكشف عن ساعد العمل وتجري في مضمار هذه الحياة جري الجري، الصبور . ولا تدع ايامها تذهب هدراً بين الكسل والنعس ولا ترى عيباً في عمل شريف تصون به حياتها وتنفع وطنها

وقد برهنت المرأة الفرنساوية ابان الحرب عن نشاطها واقدامها حتى انها حرثت الاراضي وسيرت المركبات في الشوارع ويقال ان المرأة الفرنساوية كانت من اكبر العوامل في انتصار الفرنساويين

فاذا عرفنا ذلك ودخلنا بعض بيوتنا السورية لاسفنا لما نشاهد هنالك من التقصير والتهاون . فان ربة المنزل بدلاً من ان تجهد نفسها لتخفيف النفقات وتوفير الحاجيات تراها لا تهتم لامر بل تساعد على الاسراف والاتلاف . بل انها تتلهى عن بيتها للخدم وتقصد جارة من جاراتها تخوض معها في حديث غيمة او زي جديد . وقد تقضي سحابة يومها في لعب الورق !! او تغيير الانفاس !! انفاس النارجيلة

ومن المحزن المبكي ان الكثير من نسائنا المترفهات لا يدرين ما الابرة وما الخيط حتى ان احداهن لو شاءت ان تخيط قميصاً بسيطاً لما وجدت الى ذلك سبيلاً ولاضطرت الى دفعه للخياطة

ان بلاداً لا تأتي نساؤها عملاً لا تعرف ثمن الوقت ولا معنى الاقتصاد . . .

حول حفلات المدارس

اذا جاء فصل الصيف تتابعت الاحتفالات في المعاهد العلمية . ففي كل معهد اجتماع يلتئم تلاميذه القدماء ويجولون جولات في ذكرى عهد الصبا والحداثة والكتاب والدراسة ويتناسون لوقت متاعب الحياة ومشاقها ويجددون ما تثبط من عزيمتهم في تيار العالم المخيف باختلاطهم بتلك الشبيبة الناشئة التي لم تنظر الى معترك هذا الكون الا من خلال سطور الكتاب ونوافذ المدرسة فهي كلها اعين تتشوف واعناق تشرئب لترى ما وراء تلك الجدران من ازهار عاطرة او اشواك جارحة

هذه الشبيبة تجلس الى مكاتبها وتسند رؤوسها بجمع اكفها وترسل لمخيلتها العنان فتبني لها قصوراً من الامال على اسس من الاوهام فتعلي بناءها وتزين جوانبها باتقن النقوش وتصبغ جدرانها بابهى الالوان وتخط اليها طريقاً سهلاً مستقيماً تحف به الرياحين والورود ويظلله الغار والياسمين

هذه الشبيبة تبدم للنور وتهزأ بالمصاعب وترسم امامها خطة حياتها كأنما اجتمعت لديها ازمة امورها تتصرف بها كيف تشاء وتجري الى تشاء. ولكن بين الحقيقة والخيال مجالاً واسعاً ولجة عميقة قد تبتلع الامال وتودي باصحابها. وكم يصعب على القدم ان تسير حيث تسير المخيلة

هذه ناشئة المدارس ولكنها لو نظرت الى من حولها من الذين تقدموها بالجلوس على تلك المقاعد والتأمل بين تلك الجدران البيض لرأت منهم وجوهاً تزدحم الافكار فيها وتقطب الحياة بعضها. فهي معكرة الاديم كلما انبسطت اسرتها اهاب بها من دواعي الحياة داعية فردتها الى عبوسها

ان عهد المدرسة لعهد يذكره المرء مدة حياته ويود لو كان مردوداً فكم من الذين دخلوا باب العالم والامال في صدورهم فما لبثوا الا واخذت تتساقط واحداً واحداً كما تتناثر اوراق الوردة حتى اصبحوا ولا آمال لهم

ولذلك نرى من الحكمة ان يسلح التلاميذ قبل خروجهم من المدارس بسلاح اصلب من التخيلات والآمال. وان يُعدوا لمعترك الايام بالحزم والقوة فلا تُستر عنهم المصاعب بالاشعار والمتاعب بالالفاظ الجميلة

يجب على التلاميذ ان يرفعوا رؤوسهم امام الله ويسيروا شم الانوف ينظرون الى المخاطر ويقتحمونها ويأخذون لها عدتها فلا يُسقط بهم عند اول عقبة تعترضهم في طريقهم

يجب على التلاميذ ان يدرسوا علم الوطنية منذ نعومة اظفارهم وان يكتبوا لفظة الوطن في صدورهم قبل ان يتلقنوا اسماء اقطار

الارض وبحارها . يجب عليهم ان يستعدوا للعمل لا للراحة والكسل فكل عمل مهما كان صغيراً اهم خير من الف فكر لا فائدة فيه

يجب ان يعتادوا العواطف السامية وشهامة النفس والترفع عن الدنايا قبل ان يبرعوا في سبك المعاني والاتيان بالبدائع من البديع . فكم من مثل هذه البضائع يكسد سوقها عند ماتطأ رجل التلميذ ارض العالم ويسير بها تياره على غير هدى

فاحرِ بهذه الاجتماعات التي تعقدها المدارس للجمع بين تلاميذها القدماء وتلاميذها الاحداث ان تدور فيها الخطب والمحاضرات على مستقبل الحياة وما فاز به القدماء من الاختبار وما اعترضهم بعد امال المدرسة من عقبات الزمان . فيرشدوهم الى ما فيه الصلاح والخير ويدلوهم على الطريق المثلى التي تؤدي بهم الى السعادة والنجاح ويتركوا جانباً ما اعتاده الخطباء في مثل هذه الظروف من نظم القصائد الطنانة المطربة القليلة الفائدة والقاء الخطب المملوءة عواطف راقية ولكنها لا تجري الى نتيجة تذكر

ولو تعددت هذه الاجتماعات وزاد الاختلاط بين مجاهدي العالم والمتأهبين للدخول اليه لكانت الفائدة اوفر ولكان القدماء كتباً حية يقرأ فيها الاحداث حقيقة الحياة وخيرها وشرها

اما ناشئة المدارس فتكون كنفحة تهب من ايام الحداثة على قلوب التلاميذ الاقدمين فيعودون الى اشغالهم وقد علق بهم شيء من جمال الشباب وحدته وتفانيه وعلو همته فينصبون على العمل برغبة اوفر وحزم اكبر

الرياضة البدنية

تمادى الشرقي في تفضيل العقل والاعتناء به وتقويته على جسده ولذلك تراه دخل في دروس دقيقة اجهد عقله فيها غاية الاجهاد وترك لنا في مثل هذه المواضيع مؤلفات كثيرة . وعلى هذا قد الف عقله التفكر وجسمه التكاسل وفقد الموازنة بين الاثنين وهذا شر يجب ان نتلافاه

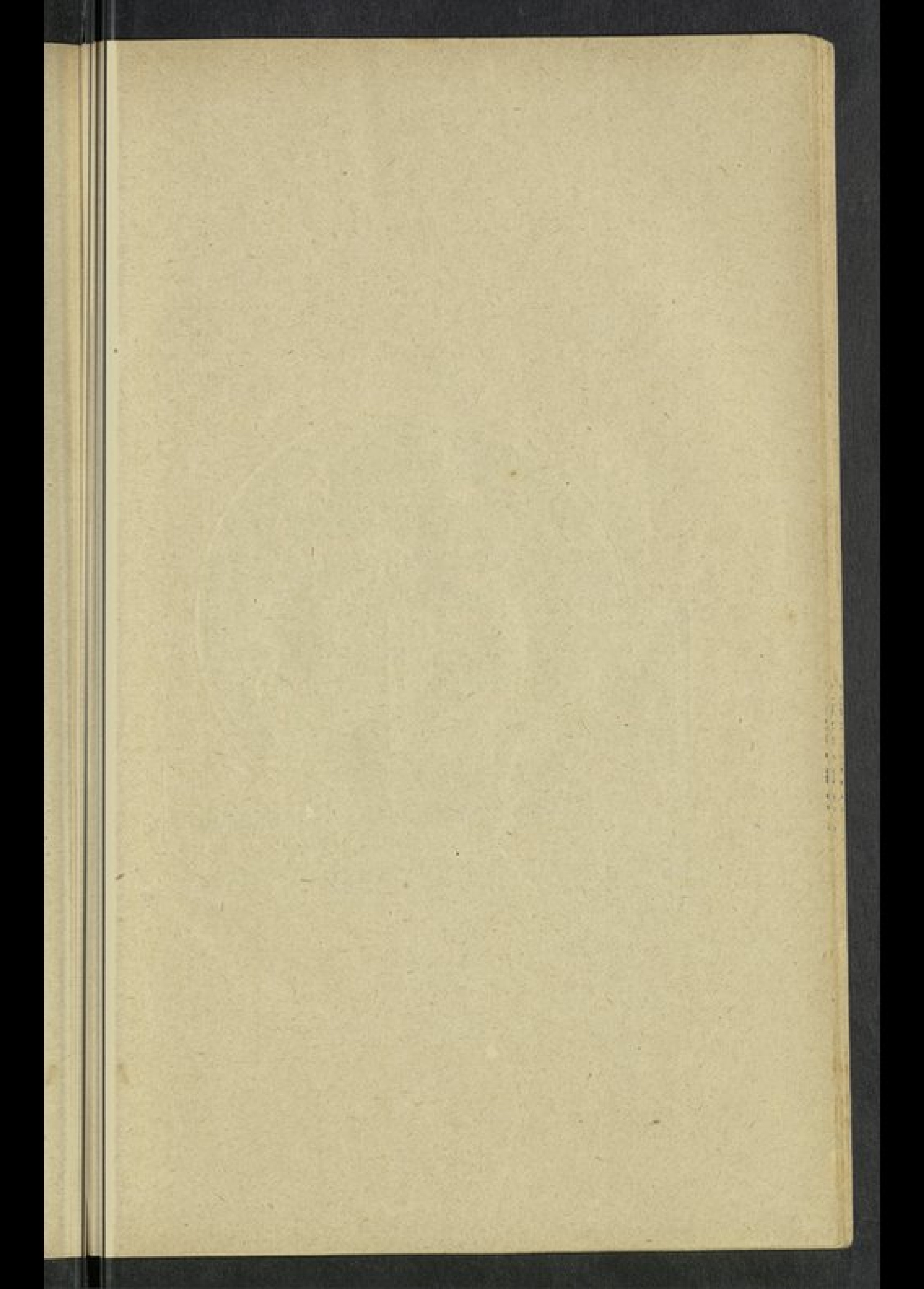
اننا نرى الشرقي قليل الحركة كثير الوقوف يحب الجدال ويخلق شاعراً . والشاعر لا يرى الامور بحقائقها ولكنه يترك هذا العالم ويسبح في طبقات الخيال والاوهام وهذا مرض لا بد لنا من علاجه اذا احببنا ان نجاري الغربيين في مدنيتهم

وخير علاج هو ان نعطي الجسد نصيبه من الاعتناء فنعوده على الحركة منذ الصغر ونسوقه الى التمرين والتدريب على امور كثيرة فيقوى وتصلب حركاته ويصبح كثير الحركة اذا عرض امر قام اليه سريعاً

ولا غرو ان يكتسب العقل من صحة الجسد لانه بتقوية الاثنين معاً تحصل الموازنة وصحة الاثنين في الموازنة بينهما والعقل السليم في الجسم السليم

فعلى المدارس ان تبدأ بالالعاب الرياضية وان تجعل ذلك اجبارياً كالغذاء والدرس . ولا شك ان التلاميذ الذين يتركون المدرسة فيما بعد سيشكرون المدارس لسلامة جسومهم اكثر من شكرهم لها لوفرة علومهم


اخلاق



المبخرة

هي حق يحرق فيه البخور . يصاغ من فضة او ذهب او شبه . ينقش ويخرم وترسم عليه الرسوم اشكالاً . يعلق باطراف ثلاث سلاسل طويلة تؤخذ مجموعة باعلاها وترسل بها المبخرة الى انف من يراد تبخيره ارسالا

وقد يعتاض « الحشيش » من البخور فينفذ في الخياشيم ويتسرب الى العروق ويختلط بالدماغ فيحمل المرء على جناحين من الكبرياء ويرتفع به الى اعالي الفضاء فينفرد بعزلته ويستعز بتفوقه ونبوغه، ولا تفوق ولا نبوغ

ويظل على هذه السكرة مرتفعاً في سماء مجده كلما ادار لحاظه الى العالم تبسم مستخفاً وضحك مستهزئاً ورشق الكون بافكاره السامية وآرائه العالية . ثم يكتف يديه ويستوي على مقره ينتظر بخور المدح والتقريظ ولا يلبث ان يصل اليه ما ينتظر

هذه المبخرة وان تكن خافية عن العيان لا تنظر ولا تلمس فهي منتشرة الاستعمال لاسيما في بلادنا السورية حيث الاطياب والرياحين

تغري بتنشق الروائح العطرية والابخرة الذكية . وقد صاغ كثير من الكتاب المباخر وتأبطوها واوقدوا فيها حتى لا تفوتهم فرصة تسنح ولا تأخذهم غفلة عن تأدية واجب التبخير لكبير او صغير

كم اشغلت هذه العادة ادمغة المفكرين عما به فائدة للعلم او منفعة للبلاد فافرغوا ما في وسعهم من خيال وما في قلبهم من عواطف نبيلة وافكار جميلة ليصوغوا منها « مبخرة » طويلة السلاسل متقنة الرسوم والنقوش لبعض المتمولين الجهال او بعض ذوي الوظائف الذين وصلوا الى مراكزهم (في الزمن الغابر) على طرقات الذهب

وقد كان المدح فيما مضى يجدي صاحبه نفعاً فيخفف من جرمه . فكل بيت من قصيدة يرفع له بيتاً من مدر . وما مدح المتنبي كافوراً الا لغاية ولما قنط من الحصول عليها قلده من الهجاء ما علق به ابد الدهر

اما في ايامنا فلا ارى ما يدعو الى تقصيد القصائد وحرفة الادب تستقي ماءها من غير آبار الامراء والاغنياء واصبح التمويه والكذب بضاعة لا تجوز على ابناء العصر ولا تجدي صاحبها الا احتقاراً

فالى الجرأة الادبية فانها تدل على مواضع الضعف او الذلل وانها لتردع بعض المتطفلين وتمنعهم من الجلوس الى موائد الكتابة وما في جرابهم منها الا بعض مسروقات مبتذلات

. . .

وهناك داء هو المجاملة . يقول الكاتب في نفسه : ما ضرني حسنت مقالة هذا ام ساءت . لنوذّد له قسطاً من التبخير فيظل صاحبنا ولا نربح به عدواً . ولنتركه يخبط في ظلامه

وعلى هذا يختلط الحابل بالنابل ويصبح كل من مسك قلماً كاتباً وكل من نظم بيتاً شاعراً

والشعب من جراء ذلك في تضليل لا يعرف الغث من السمين · فيقرأ في كل جريدة : هذا هو الكاتب النحرير والشاعر الالمعي والفيلسوف الفريد والنابغة الوحيد · وقس على ذلك القاباً قد لا يكون لها معنى وقد يجهل كاتبها معناها

ويظن بعضهم ان مهنة الانتقاد لا تقوم الا بالتقريظ وانها سهلة المراس اذا عرف الكاتب فيها بعض الفاظ مصطلح عليها تمكن من انتقاد اي كتاب شاء وابداء رأيه فيه · فكأن يقول في كتاب لم يقرأه « قد الف فلان كتاباً هو جيد الانشاء كثير الافكار فريد في بابه لم تلد العربية مثله ولم ينسج على منواله وهو جدير بان يكون في مكتبة كل اديب وكل مفكر ولبيب » · وعلى هذا النمط الى ان يملأ صفحة ولا يتكرم صاحبنا بان يشرح لنا قصد الكاتب وخطته وموضع ابداعه وطريقة كتابته ومحاسن انشائه · اما كان الاوفق السكوت ؟ اجل · انما قد يكون في رأس المقرظ فكر يشفع له في تقريظه · كان يقول مثلاً : اكيل للكاتب هذا صاعاً يكيل لي مثله في المستقبل · وعلى هذا يكون النفع متبادلاً

فبئست هذه حجة

ومن الغريب ان كل صاحب مهنة او حامل قلم اصبح لا ينتظر الا المدح والتقريظ وان جاء بالعجب العجاب من سقط في الكلام او نقص في الصناعة · وهو يحسب ان التبخير ضريبة على الكتاب لا بد من ادائها

فزيد يؤلف كتاباً يُضحك منه ويبكي . لا يُعرف له ظهر من بطن ولا يفهم منه حرف واحد حتى من مقدمته . ويسمه بعنوان من الفخفخة والعظمة بمكان . ويرسله للجرائد والمجلات ويطلب اليها ان تقول كلمة فيه فلا تدع الجرائد كلمة مدح الا وافرغتها في تقريظ الكتاب

ولو سألت احدهم ان يشرح لك صفحة منه لتبسم وقال : لم افهم من هذا الكتاب شيئاً انما كتبت ما كتبت اكراماً « لصديقي » ومخافة ان يستاء والعياذ بالله عندئذ !

فسبحانك اللهم كيف يُهتدى مع ذلك الى الصواب

وعمرو ينظم قصيدة فلا يدع اديباً يمر في السوق امامه الا عرضها عليه وطلب منه تقريظها . واذا وجد فيها بعض النقص فيا لها من اساءة لا تغتفر !

وفلان يصور صورة يعرضها على الناس وويل لمن وجد فيها عيباً وويل لمن لا يحرق البخور امامها

وفلان اولم وليمة فان لم تنتبه الى جودة الطعام والشراب ولم تقل كلمة في الترتيب والنظام اعتبر ذلك المضيف انه قد خسر دراهمه سدى

وبلغ الحمق ببعضهم الى ان اتخذوا مباخر يبخرون بها نفوسهم اذا لم يجدوا من يبخرهم . وهذه هي الطامة الكبرى !



الانتفاعية

وما ادراك ما هي ! مرض يكمّ الافواه عن النطق بالحق ويعمي الابصار عن الهفوات ويدوس بالاقدام على الواجبات

من اعتلّ به يظلّ ممتهناً محتقراً يحني للصغار ظهره ويمد للصفع صفحة خده ، ويُحرم نظرة الانفة ويُخجل من نفسه اذا ما نظر الى اذياله وهو يجرها وسخة قذرة

اذا سعى التاجر لجر مغنم ، واجهد العامل نفسه ليتروى على قطع مفازة هذه الحياة ، واذاب الكاتب دماغه لتحصيل عيشٍ ، فلا لوم ولا تثريب . تلك سنة الله في خلقه . يشقى الانسان ليعيش . وقد كتب السعي علينا منذ البدء

انما من يبيع ضميره ويدنس نفسه ويعمد الى المراوغة والخديعة ويتسلح بالرياء ويمد لسانه بالكذب لينال بعض النفع او ليصل الى بعض المراكز ، فذلك « انتفاعي » لا ينظر الا الى جيبه ولا يهمه خرب الكون او عمر

والانتفاعيون كثيرٌ في بلادنا :

منهم من اذا كان يشغل وظيفة اغضى طرفه عن المخالفات واكتفى بانه يتقاضى بعض دريهمات هي في نظره خير ما ينال من

وظيفته . حتى اذا زُحزح عن تلك الوظيفة افاق من غفلته وملأ فراغُ جيبه فؤادَه حسداً وانتقاماً ، فيرى الشر حيث لم تتفتح عينه سابقاً الا على الخير وافرغ في جام انتقاده سماً ناقعاً

ومنهم بعض قادة الرأي العام بل بعض الوجهاء الذين يأتمون بالانتفاعية علماً لهم . فهي مقياس وطنيتهم ومغنطيس قلوبهم . فأنى بدتْ خفقوا بها وتجمعوا من حولها . فاذا قضت عليهم بدمار الديار وهتك الاوطان ومساعدة الظلام فهم يملأون اشداقهم في سبيلها « سبيل الانتفاعية » . واذا نُكس علمها في مكان وخفق في مكان اخر داسوا على مبادئهم وباعوا اخلاقهم وسعوا اليها على مرافقهم

فلا يغرنك من بعضهم ما يتقولون به من حب الاوطان والرغبة في الاصلاح والمناداة على السطوح بالمجاهدة في سبيل الحقيقة والاخلاص للبلاد . فانما الكثير منهم يسعى لغرض في النفس حتى اذا ناله هدأ جأشه وسكن كما يسكن المرجل بعد غليانه

واعجب ممن لا يرون إلا النقص ولا ينادون الا بالويل والثبور ولا يرون لغيرهم محمدة ولا فضيلة ما داموا لا يجدون فيهم نفعاً لهم ومع هذا فهم يصيحون عالياً منادين بالوطنية والتفاني في حب البلاد

فقل لمثل هؤلاء :

لا ترفعوا اصواتكم ولا تملأوا الخافقين صراخاً ، فان القليل من المال على حقارته يخفت من تلك الاصوات على رفعتها . ولا تذكروا الوطن الكريم في امور لا دخل فيها الا لجيوبكم ، فان الوطن براء منكم وممن كان على مثالكم

حرام ان تكون الاوطان سلعة يتاجر بها الانتفاعيون ! !

نثر الكلام

اعوذ بالله من المولعين بنثر الكلام . فئة من الناس لا يلذ لهم العيش بل لا يشعرون بكيانهم الا اذا سمعوا رنة الفاظهم . او انهم يخافون ان يفقدوا قوة النطق او تصدأ السنتهم في احناكهم فلا يزالون يحركونها لفائدة او لغير فائدة

اذا اجتمعت باحدهم فلا سبيل لاغتنام فرصة تتمكن بها من ارسال كلمة بين متدفق خطاباته

وقد يستوقفون المارة في الطريق ليسردوا حديثاً يحوم على قلبهم ويغلي في صدرهم وهو يتطلب منفذا . فاول من يلمحون من معارفهم يكون فريسة هذا الحديث . . . واذا حرموا مصادفة كهذه استودعوا حديثهم الشجر والجدران والمركبات او نجوم السماء وقمرها

مرض مزمن ، ومنه ما يقتـل ، يقتل صاحبه او يقتل غير صاحبه

واهون ما ينال المرء منه الضجر والتأفف . ففلان اذا لقيك في الطريق سلّم واكثر في السلام . وسألك عن الاهل والاخوان . وعاود السؤال كرة ثانية لا ينتظر جواباً ، انما عليه ان يسأل فهو يسأل . ثم يندفع في الاخبار عما جرى له في حياته وعما رأى منذ هنيهة وكيف انه لبس ثوبه فاذا فيه لطخة فاضطر الى تبديله وكيف انه يقاسي من الالم من وجع في ابهامه وما قال له الطبيب من ان يضع عليه كذا وكذا . ثم يصل الابهام بكلبه وحيواناته الداجنة وزوايا بيته وما هنالك من امور مختلفة وما في البرية من اغراض متباينة . . . واذا آنس منك انصاتاً فلا تسل عما يجري على لسانه من اخبار تافهة لا ناقة لك فيها ولا جمل

ومنهم من يقتل نفسه بكلامه على غير فائدة ولا مدافعة عن مبدإ ولا سعياً وراء شهرة . انما تلك اللحمة التي بين شدقيه أبت الا النطق فنطقت وكان نطقها والاً عليه وعليها

وهنـاك بعض منهم ، واعوذ بالله من هذا البعض كل العياذ ، يحملون السنة محرقة لاتمر بشيء الا تركت عليه اثراً من لهيبها : الالسنة النامة والالسنة الكاذبة والالسنة المهلكة

اتريد ان تعرف ما هي الالسنة المهلكة؟ ارأيت يوماً آلة الحصاد ؟ ارأيت الزرع كيف يكون واقفاً على سوقه منتصباً ثم تمر تلك الالة فتلويه على الجانبين ، تمر به فتحني السنابل رؤوسها وتتبدد . تهوي بعد ان كانت شامخة عالية . هكذا تلك الالسنة تمر ببعض الناس ممن لهم سمعة حسنة ورتبة عالية او فضيلة تذكر فتلسعهم ثم تعود فتشعل فيهم نارها

ثم تعود فتؤججها ولا تزال حتى تترك ما كان من السمعة الحسنة والفضيلة الطيبة رماداً منثوراً

هذه الالسنة لا يروق لها ان تجد فضلاً في غيرها وان يتقدمها احد من الناس . فدأبها الهدم والتخريب ولن تبني ابداً

فالعياذ بالله من هذه الالسنة . فاذا ابتليت باحدها فاصمم اذنيك عنها او فاغمض عينيك وسر مسرعاً خوف ان تلتهمك نارها



بعض الاقلام

من الكتبة و« الفريسيين » من اذا جلس الى منضدته أخذ قلمه ونظر اليه كأنه يقول :

— ايها القلم ما احدَّ لسانك واوسع شقك يتصرب الحبر منك اسود قاتماً سماً زعافاً لمن يناله

قد بريتك لغرض في النفس . وانك لتبلغنه . وانك لبالغه بنا في هذه اليد القابضة عليك من دراية ودها . وتصرف في اساليب النميمة والرياء وانواع التدليس والتقرب والخديعة

لابدَّ ان يتصبب لي من شقك نفع ومن هذه الاسطر المتتابعة كصغار النمل فائدة يهدأ لها روع هذا القلب الطموح المقصر عن عاليات الامور الفارغ من العواطف الشريفة والافكار السامية و المملوء مماذقة وخبثاً

لاتحتقرن نفسك لصغرك فانك امضى من السيف في قلوب الخائفين حسنت سيرتهم ام ساءت . وان كل قطرة من فمك المفعم سواداً وسماً

قد يرتجف لها قوم يأتون اليَّ مهرولين يفتحون لدي جيوبهم ليردوا تلك القطرة السوداء الى مصدرها

ارى فلاناً فـاني لا احسبه الا كريماً شريفا يسعى للخير جهده لا يؤذي ابناء وطنه ولا يريد باحد شراً . فلمَ أدعه ينام ملء جفنه متمتعاً بالسمعة الحسنة يشكره الشعب ولا يعبس المارة بوجهه

قد تكون تلك السمعة الطيبة والفضل الشامل سبباً لجر مغنم . فاسحب ايها القلم سطراً او سطرين على هذا الطرس . دنس بهما عرض ذلك الرجل وارشقه بسهامك الحادة فلا يلبث ان يرتجف عندما تبلغ الى اذنيه رنة تلك الالفاظ . فيسائل نفسه عما اساءت . ثم يهرول اليَّ او يرسل من يستفهمني . فيعلم ان لاذنب له الا انه لم يشتر بذاء تلك ايها القلم

وهناك رجل لم يدع اثماً الا ارتكبه ولم يترك منكراً الا اتاه . فاذا وضع في يدي ما يستر عيوبه ويرفع مقامه كان لك ايها القلم بين انامِلي صرير يصم الآذان في مدحه وشكره ورفع مناره ودعوة الناس للانضواء الى ظل علمه مع انه شر من اظلت السماء

انت ايها القلم رهين اشارة لتجري . فالخير والشر عندك سيان تنتفع من كليهما على حد سواء

انت ايها القلم على مفرق الطرق تباع وتشرى وتتبذل للناس ... كما تتبذل المومس .. الا انك اشد شراً واوسع ضرراً

..

التشبه الاعمى

داء ألمَّ بنا فولج القصور والأكواخ ونحن غافلون عنه

داء لا يؤذي الاطراف ولا يضر بالحواس . ولكنه يقلق القلوب ويسهر العيون فيظل صاحبه والكآبة ملء مقلتيه . ولو شاء لانتفض منه انتفاضاً وحطم قيوده تحطيماً فعاوده النوم بعد السهر وصفت له الكأس بعد العكر

وما ذلك الداء الا « داء التشبه » الذي ينخر في الاكباد نخر السوس . ويحوم حول الافئدة حومة الفراشة حول السراج

اريد بالتشبه ذلك الشر الذي يحمل الفقير على مجاراة الوسط . والوسط على مجاراة الغني . والغني على مجاراة الاغنى منه . ولا تزال السلسلة متصلة الحلقات

من تقيد بتلك السلسلة يحمل على ظهره حملاً باهظاً

الا ينظر المرء الى نفسه فيعلم مقدار قوته فيأمن العثور ويسير

بشوطه في هذه الدنيا على طريق سهل لا تصده العقبات ولا تعترضه المهاوي

ان التباين موجود بين الناس منذ خلق العالم . فلا سبيل الى التساوي . ومهما قسم للانسان من جاه او مال فلا يعدم من هو اوجه منه واغنى . فاذا ظل يتحرق ويتمرمر فلا يحلو له عيش ولا يهدأ له بال

واوضح ما تكون اعراض هذا الداء في ازياء النساء واعمالهن . تقتّر المرأة على نفسها وتضر بعائلتها حتى تتحدى جاراتها في لباسهن واثاثهن . وقد تنثر ثروة زوجها نثر اوراق الخريف بين البذخ والاسراف خوف ان تظهر امامهن بمظاهر العجز والتقصير

يُذكرني ذلك مَثَلَ الضفدع والثور . فان ضفدعاً رأت يوماً ثوراً يشرب من نهر فاعجبها قده وجماله وقالت في نفسها : لم لا اكون مثله عظيمة الجسم بهية المنظر . واخذت تعب في الماء وتتمطى وتجهد نفسها وتتغاصب حتى انفلقت !! ولكنها لو تدبرت قول الشاعر :

قدّر لرجلك قبل الخطو موطئها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

لكانت العاقبة اسلم

ولو نظرنا لرأينا ان الشرق بجملته يريد ان يتبع الغرب في ملاهيه وازيائه . في بذخه واسرافه . لكن الغرب في واد ونحن في واد . وما الغرب الا بستان قد حوى نباتاً وشجراً كثيراً منها ما يحمل السم في ثمره . ومنها ما اثاره البلسم والترياق . فلمَ نعمد الى الاولى ونترك الثانية ؟ واذا كان لا بد من التشبه فما احرانا ان نتشبه بالغرب

في علومه وآدابه . في مصانعه وتجارته . في زراعته وبحريته . في جرأته وفي قوله الحق واقدامه على عمل الخير

لم لا تقتدي نساؤنا بنساء الصليب الاحمر . لم لا تقتدي فتياتنا بعاملات الغرب اللواتي يخلعن ثوب الكسل ويرتدين ثوب الجد والعمل؟

الى هذا يرمي الشاعر حيث يقول :

ان التشبه بالكرام فلاح



بين النعوت والالقاب

دفع الي موزع البريد كتاباً . فرحت اطلب اسمي على ظاهر المغلف فاذا هو مدفون بين النعوت والالقاب . لا يكاد يبدو للعين بين الالفاظ الطنانة والاحرف المتراكبة : « جناب الاجل الامجد الماجد كريم الشيم علي الهمم الاكرم الافخم » وما وراء ذلك من الكلام الفارغ . فرثيت لهذا الاسم ولانزوائه في جانب من ذلك المغلف الطويل العريض الذي ما اتخذه الكاتب كذلك الا ليظهر ما عنده من البراعة والمهارة في تدبيج ظهور المغلفات . ثم رثيت لمأموري البريد الذين تمر بين ايديهم الالوف والالوف من هذه الرسائل التي تأخذ من وقتهم وتؤخرهم في توزيعها

فاحرى بمن يكتب المكاتيب ان يضع اسم المرسل اليه ظاهراً واضحاً لا تعلق العين الا به وان يتغافل عن تلك الترهات ويجتزئ بكلمة واحدة كما يفعل اهل الغرب في مثل هذه الظروف

واری ان هذا الداء لم يأتنا الا من الدولة البائدة حيث كانت الظواهر تغني عن البواطن وحيث كان التدليس والرياء يجري بالاقلام الى ما تخجل منه النفوس اذا خلت الى ذواتها

ان العرب الاقدمين الذين نتكلم لغتهم لم يكونوا على مثل هذه القواعد بل انهم كانوا يكلمون الوضيع كالرفيع واذا ارادوا تكريم امرء دعوه بالكنية دون الاسم فيقولون : يا ابا فلان . فاذا كانت هذه الخلعة قد خلعها علينا الاتراك فما اجدرنا بان نلحقها بهم ونتبعها باوانيهم غير آسفين فما هي الا دليل الضعف والتخوف والتقرب والتمليق

وقد بلغ منا الجهل حتى ان بعضنا اذا لم يجد هذه النعوت الفارغة على ظاهر كتابه غضب واعدها اهانة واحتقاراً . فما اصغر تلك العقول وما اشد تعلقها بالقشور دون اللباب !

وهناك ايضاً شنشنة عند بعض الكتاب فانهم اذ حبروا ورقة او كتبوا سطراً او عرفوا كويتباً فلا تسل عن القاب التعظيم والتبجيل « كاللوذعي والعلامة والفهامة وفريد عصره والعالم القح » الى غير ذلك من الالفاظ الغريبة التي قل ان تجيء في محلها

وكم هناك من زجاجات الخل كتب عليها : الخمرة جيدة المعتقة



اعوذ بالله من الرسائل

كلما جلست الى مكتبي ورأيت عليه كوم الرسائل ضممت يدي الى صدري وقلت : اعوذ بالله من الرسائل

بُليت بان احلني الله في مركز تمطره السماء الرسائل امطاراً

ليس الشر في تكاثرها واختلاف الوانها ومصادرها ولكن الشر كل الشر في الاطلاع عليها وقراءتها وتفهم الغازها ومعانيها

اجلس معي يا اخي الى مكتبي ولو قليلاً لاريك بام عينك ما يحملني على التذمر والتبرم

خذ هذه الرسالة وانزع غلافها وابدأ تلاوتها . ان الورقة طويلة عريضة تسع الصفحة منها معلقة من المعلقات . ولم يبخسها كاتبها حقها فقد سودها من طرفها الى طرفها . فهات لنا من آيات بلاغته وافانين كتابته . لاغرو انه يقدم تقريراً عن احوال زراعته وطرائق حراثته ومنافع السكن في الجبال بين الصخور والادغال . فانه قروي فلاح

ياحبذا لو كان الامر كذلك!

ولكن ساء فألك وخاب ظنك فان العشرة الاسطر الاوائل التي تأنق في كتابتها واستجمع فكره لصوغها وتدبيجها ليست هي الا جملا افرغ من قلب ام موسى . كلام متراكب والفاظ مترادفة . عشرة اسطر لافائدة فيها اضاعت وقت كاتبها . وتأخذ من وقت قارئها والويل لقارئها!

ثم تابع يا اخي تر ان العشرة الاسطر التي تنتهي بها الرسالة قريبة الشكل والمعنى من اخواتها الاولى . وقد تزيد عليها ثقالة وابهاماً وترادفاً . فاذا كان الامر كما ترى فما بقي من الرسالة يا رعاك الله ؟

لم يبق الا ثلاثة اسطر يقول فيها الصديق العزيز : ارسلوا لنا ان شئتم كذا وكذا . اما كان الاجدر به ان يبدأ بهذا ويكفينا مؤنة القراءة واجهاد النظر واضاعة الوقت !

ثم خذ يا صديقي هذه رسالة لا اعرف من كتبها ولعلك تعرفه انت . اقرأ توقيعه في اسفلها . وكيف تقرأ ما لا يقرأ ان صاحبنا يخال له ان الناس درسوا صورة توقيعه على مقاعد المدرسة فلا يتكلف توضيحه ولا يزعج نفسه بتنقيطه . فاجبه على رسالته اذا شئت او اذا قدرت . ثم قد تكون في بعض الايام سائراً في الطريق واذا باحدهم يأخذك بذراعك ويقول : اهكذا تكون الصداقة . ارسل لك كتاباً ولا تتنازل الى الرد عليه

يالله فما لك الا ان ترفع يديك الى السماء وتقول اعوذ بالله من الرسائل!

وهذه رسالة اخرى اذا قدرت ان تقرأ منها حرفاً عددتك من اصحاب الخبرة . لاتقل وماذنب من لا يحسن الكتابة ولا الاملاء . فاقول عليه ان يجهد نفسه ولو قليلاً ليكتب كتابة واضحة تسهل على المرسل اليه قراءتها او ليكلف احداً كتابة رسائله فلا يرسل الى الناس عذاباً لا كتاباً

وهناك امور كثيرة قد يضيع الوقت في سردها . فعليك يا اخي اذا اردت كتابة رسالة ان تعمل بالنصائح الاتية

١ ضع راسك على يدك قبل الكتابة وفكر جيداً فيما تريد ان تكتب ليكون ذلك واضحاً في عقلك

٢ ابدأ كتابك بغير مقدمات ولا موخرات بل ادخل في الموضوع من اول سطر تكتبه

٣ خط الفاظك مفسرة ظاهرة المعنى ولا تعمد الى الالفاظ الغريبة الوحشية

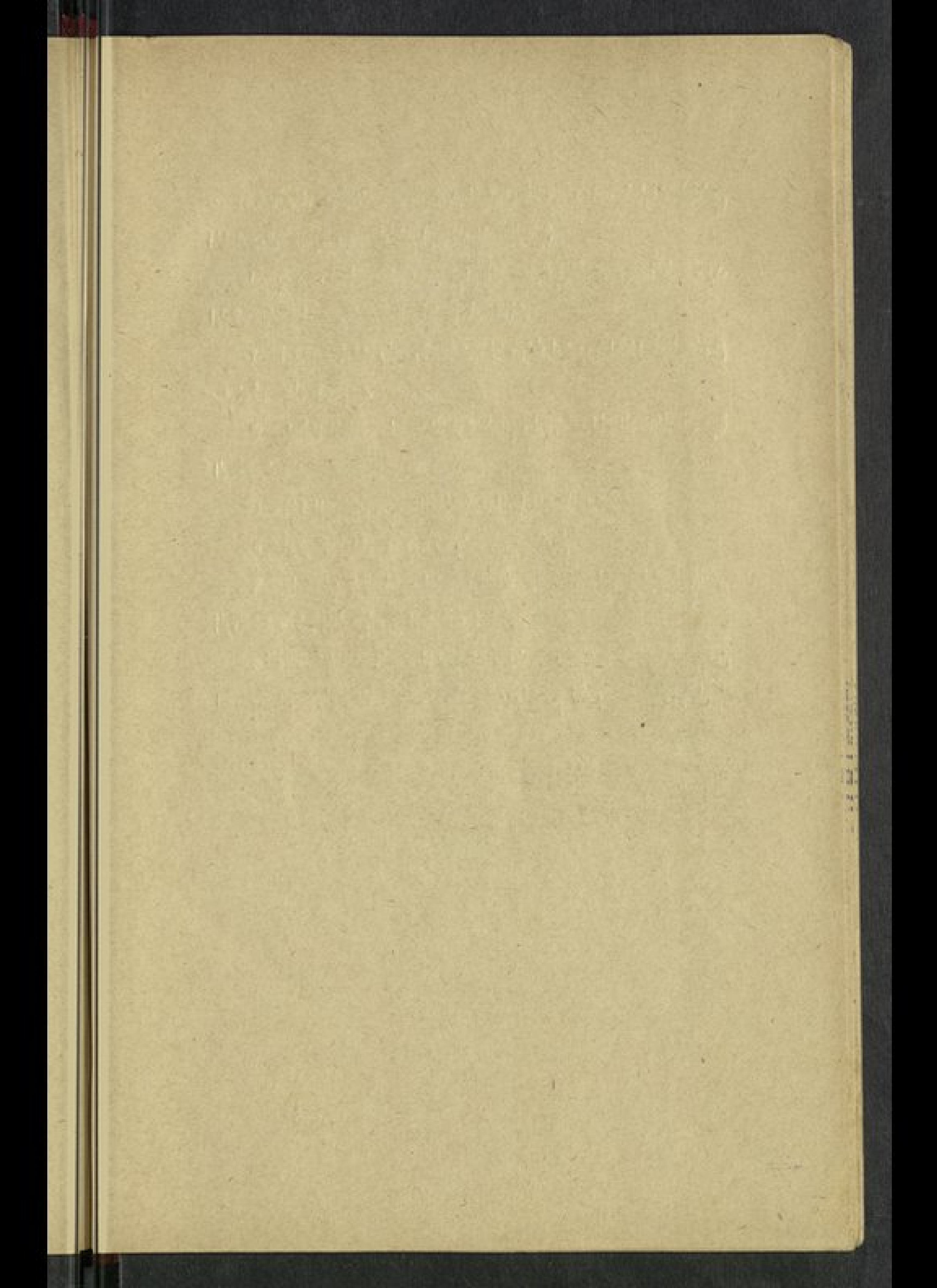
٤ اذا انتهيت من مسالة فلا تعد اليها لغير فائدة

٥ أتمِ كتابك كما بدأته بغير شرح فارغ

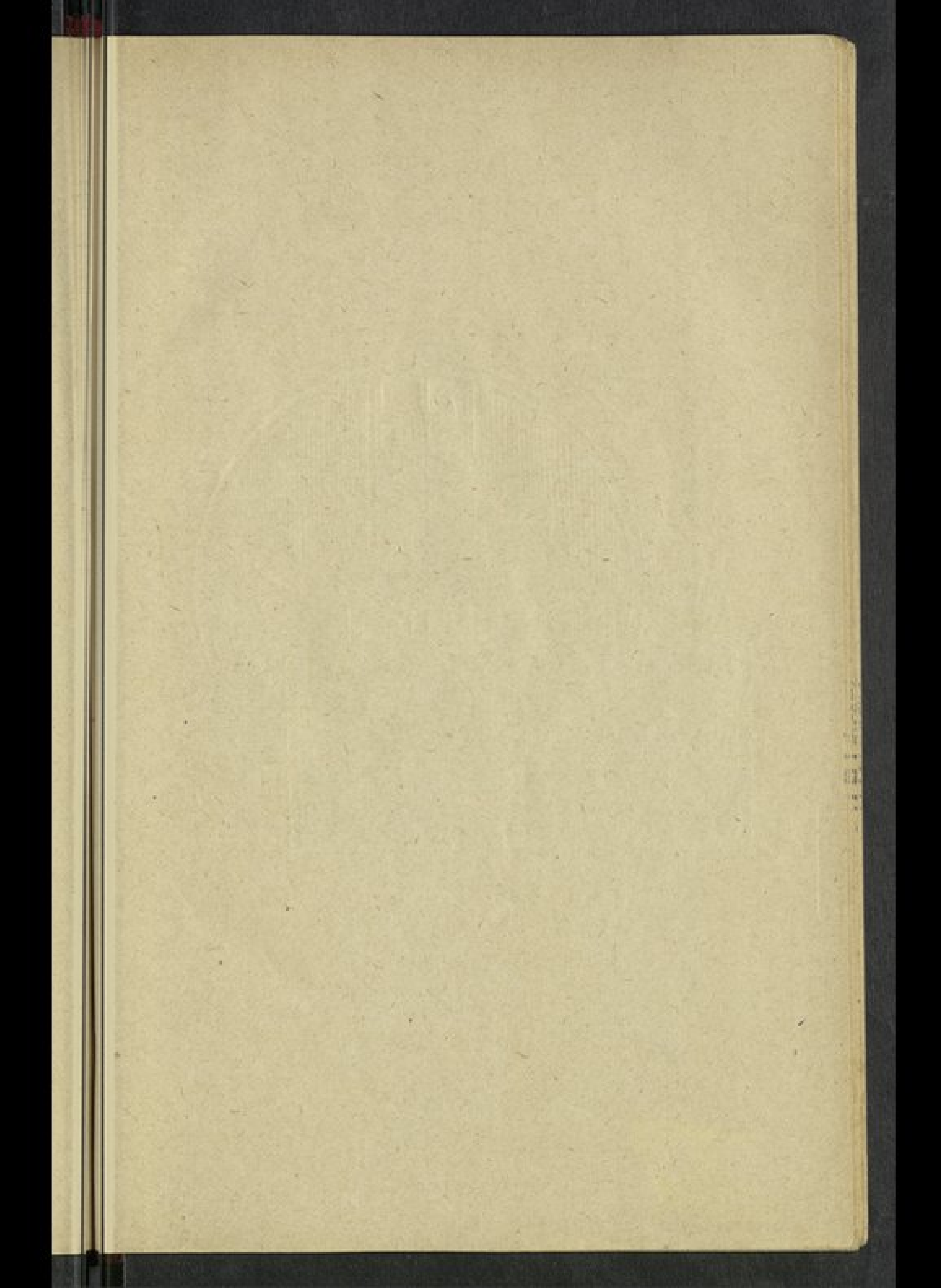
٦ ليكن توقيعك واضحاً والا فاكتب اسمك جلياً في اخر الورقة ليعرف القاريء من انت من الناس

هذه بعض النصائح اذا تبعتها يا اخي ربحت شكر كثير من اصحاب الاشغال والمصالح العمومية وممن بلاهم الله بكثرة الرسائل






مكتبي افندي
عزت



مكتبي افندي

تعين « مكتبي افندي » في دوائر الحكومة فظهر اسمـــه في الجرائد في الصفحة الثالثة . فاشترى منها عدداً وافراً ارسل بعضه الى اصحابه البعيدين ووزع ما بقي على القريبين واحتفظ بواحد منها يحمله في جيبه انّى توجه ليبرزه عند الحاجة ويضعه تحت انظار من لا يعرف انه متوظف في الحكومة

قصّ « مكتبي افندي » بدلةً ثمينة وساترة (بردوسي) من الجوخ الفاخر واشترى عقـدة من الطراز الجديد وخفّين لماعين يرى وجهه فيهما . واخذ عند خروجه من المكتب يلقي ساترته على زنده ويخطو في الطريق خطوة منتظمة متوازنة وهو منتصب القد كأنه شدّ الى ظهره عصا صلبة لا تنحني

اما رأسه فكالقلة الثابتة لا يميل يمنة ولا يسرةً ونظره حاد لا يتجه الا امام انفه

اتراه يشغل عبثاً ذلك المنصب الرفيع في دوائر الحكومة ؟!

اذا التقى «مكتبي افندي» باحد معارفه في الطريق سلم عليه وتنازل في بعض الاحايين الى مد يده انما لا يبرح في صوته نغمة غريبة تدل على الرفعة وعلى أنه مستخدم في دوائر الحكومة

يعجب، ويحق له ان يعجب، كيف ان هذا المار لا يوسع له وكيف ان ذلك الجالس في الترام لا ينهض ليجلسه مكانه. اتراهما يجهلان انه «مكتبي افندي» ؟

هو صاحب الاسرار في السياسة والادارة يعلم كل شيء قبل ان يعلم به احد غيره. الا انه يتكتم ويحفظ الصمت فهو اعقل من ان يبوح باسرار الحكومة وينشر مقاصدها

اكثر ما يعتز «مكتبي افندي» في قريته وبين معارفه. فهذا يشيد باسمه وذلك يسرف في مدحه وذاك يهبه البكوية . . . فيظل ينتفخ ويتعالى كانه ديك حبشي على شرفة

...

«والمكتبي افندي» صديق عرفه في المدرسة وظل يتردد اليه بعد مغادرتها فتوثقت بينهما عرى الالفة. فما كان يمر يوم الا اجتمعا وتناجيا افكارهما وآمالهما . على ان ذلك الصديق كان ميالاً الى التجارة فافتتح حانوتاً صغيراً وسهر على عمله لا يضيع دقيقة واحدة ولا يمل من مجاملة الزبائن ومساومتهم

وكان اذا اتاه «مكتبي افندي» يتقدم له ما يجب (المثل) من التجلة والاكرام ومكتبي افندي يجلس جلسة العزة وينظر الى تلك البضائع المنضدة نظرة السخرية والاحتقار

...

تزوج «مكتبي افندي» فكان في حفلة قرانه كثير من الموظفين وكثير من الاصدقاء والمعارف. وكانت عروسه تتيه دلالاً وغبطة. وكيف لا تتيه وما كانت لتأمل ان حظها واصل بها الى هذه المنزلة العالية من ان تكون عقيلة لكاتب في دوائر الحكومة!

الم تقبض بزواجها هذا على خيط — وان يكن دقيقاً جداً — من خيوط ذلك الحبل العظيم الذي يربط البلاد اجزاءها بعضها ببعض والذي يسمى الحكومة والسلطة ... الا يحق لها ان تفتخر ان بيدها شيئاً من تلك السلطة العظيمة!

...

مرت الايام والسنون على «مكتبي افندي» وهو في مكتبه بين اوراقه ودفاتره يسود الصفائح ويبيض الدهر من سواد رأسه. وقد اعتاد قلمه كتابة ما يكتب حتى انه لو ترك لوحده لجرى من غير ما خطأ ولا تردد

الف «مكتبي افندي» كل حالة من حالات حياته حتى انه لينهض صباحاً ويأتي مكتبه مهتدياً في طريقه لا يضل فيها ويكاد يضع رجله في المكان الذي وضعها فيه اليوم السابق. كل ذلك من غير فكر ولا انتباه كأنه في المنام

ترى كل صباح على الطريق رجلاً يسير الهوينا ممطرته تحت ابطه ورأسه ممتد، فيه عينان تنظران ولا تريان لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وترى كل مساء رجلاً آيباً الى بيته ممطرته تحت ابطه ورأسه ممتد، فيه عينان تنظران ولا تريان

...

مرّ الى جانب مكتبي افندي، وهو بين اوراقه ودفاتره يسود وينسخ، موظفون آخرون انما هؤلاء قد صعدوا سلم الوظائف وتركوه الى منضدته حتى انه لو نظر اليهم لما تميزهم لبعد الشقة بينه وبينهم.

اما هو فقد تضاءل عقله وانحصر فكره واجتمعت كل افكاره في ورقة ينسخها او انموذج يملأه او ورقة يوقع عليها واصبحت هذه الاعمال طبيعية عنده حتى اصبح لا يحتاج للفكر عند إتيانها

اذا ترك مكتبي افندي عمله واجتمع في مجالس غير مجالسه تراه شارد النظر جامدا لا يبدي رأياً ولا يقص قصة ولا يحدث بحديث كانه غريب عن الدنيا وجد فيها صدفة وهو لا يعرف كيف وجد او كأنه نام من خمسين قرناً ثم استفاق في جيل غير جيله

ذهبت تلك النفخفخة فخفخة الشباب واصبح من الحياة والضيق في شغل شاغل لا يكفيه معاشه مهما قتّر ولا يستطيع تعليم ابنائه ولا يتمكن من عمل غير عمله. بينا صديقه التاجر قداصبح ذا ثروة وبحبوحة من العيش تلتف من حوله عائلة مزدهرة بالصحة والرغد ترنّ الضحكة فيها رنين الجلاجل وتبدو الابتسامة على ثغرها لطيفة رطبة كأنها زهرة في الربيع

. . .

وليالي الاعياد. . سرور وغبطة في تلك الدار. وبؤس وحسرة في الدار المقابلة لها

مرّ التاجر يتبعه عتال يحمل اللعب الجميلة والتماثيل الفاخرة هدايا لاولاد التاجر على رأس السنة . . .

وتأخر «مكتبي افندي» على خلاف عادته وارسل يده الى جيبه

مراراً يفتش عن دراهم لا يجدها ووقف امام المخازن ينظر الى اللعب نظرة باهتة يكاد الدمع ينفر من عينه. ثم يسير خطوة ويقف متردداً لا يجسر ان يعود الى البيت فارغ اليدين.. ثم يمشي منقاداً بالعادة . يدفعه هذا الاب بيدٍ تحمل الهدايا ويصدمه ذلك الولد بعلبة مفعمة ملبساً وحلوى !...

فما شعر الأ وهو امام باب مأواه والأ يده تقرع الباب ...

وكأن قلبه انتفض من سبات عميق عند سماع الصوت. فاخذ يرتجف ويهتز اهتزازاً شديداً وحاول العودة ادراجه فلم يتم الا وامرأته امامه يتلوها اولاده وفي كل نظرة من نظراتهم علامة استفهام ؟...

فاستسلم اذ ذاك للعبرات وبكي اهله من حوله ...



حول الوظائف

يجلس بعض كبار الموظفين الى مكاتبهم ويتناولون بريدهم اليومي فاذا صفحات كبيرة سوداء تتساقط بين ايديهم اذا تاوت منها واحدة تلوتها باجمعها لانها كلها ترمي الى غاية واحدة الا وهي طلب وظيفة او مامورية

قد اغتنم طلاب الوظائف فرصة الانقلاب الاخير فارهفوا اقلامهم وعرضوا اوراقهم وانصبوا على الكتابة انصباباً وارسلوا عرائضهم تباعاً وهم بين شك ويقين وخوف ورجاء . ترى ذلك المتوظف العالي يقلب تلك المسودات بين يديه ويبسم تارة ويغضب اخرى وقد يجيب عليها بكلمة لطيفة كلمة استمهال او اعتذار تكون كطعنة خنجر في صدر من ارسلت اليه او يلقيها الى يده اليمنى في سلة جمعت كثيراً من امثالها

ولا غرو ان الحاكم يصيبه القسم الاعظم من هذه الرسائل فقد سمعت

انها تنهال عليه من كل حدب وصوب حتى كادت تبهظ مكتبه ثقلا وانه اذا فرغ من قراءتها لايلبث ان يستاذن عليه احدهم وقبعته بين يديه يديرها ويبسم ويتطلع بخضوع حتى اذا آنس من الحاكم ارتياحاً او استعداداً لاستماع كلامه باح بسره وما سره سوى طلب وظيفة في الحكومة الجديدة

فاف لك ايتها الوظيفة التي تحطين من كرامة الرجال وما انت من شيء يذكر الا انك داء قد فشا في بلادنا وعم في سهولها وهضابها فليس من قرية او مدينة الا ولها نصيبها منه

فان في لبنان فئة من الناس لا هم لهم ولا شاغل يشغلهم الا تدبيج العرائض في طلب المناصب واقلاق الحكام وتعكير مجرى الاحوال فكأن كلمة « الوظيفة » كتبت امام عينهم بحروف من نور حتى غشيت ابصارهم وحجبت عنهم كل ما كتب على صفحات الكون من فصول الارتزاق ومرافق الحياة من تجارة او صناعة او مهنة اخرى يسوغ كسبها

ولكن هيهات ان يفكروا في ذلك وابواب الارتزاق عندهم كالنجوم والوظيفة كالشمس « اذا طلعت لم يبد منهن كوكب »

اذا جئنا نبحث عمن يقدم تلك العرائض ونقرأ في سفر حياتهم لرأينا منهم قوماً سود الماضي صحيفتهم فاعمالهم السالفة تشهد بتحاملهم على الشعب واذاقته الامرين من جور وعدوان وظلم واتفاق مع الاتراك على هضم حقوق السكان وارهاقهم

ومنهم من لا يشفع به الا اسم اسرة عريقة بالنسب يطاطئ ظهره

تحت حمله وليس له كفاءة ولا علم ولا حنكة

فاحر بهؤلاء ان يطلبوا مكاناً قصياً يتحجبون فيه عن عيون مظلوميهم ويكفوا عن تسويد الاوراق الطوال العراض في طلب وظيفة لا يستحقونها

اما طريقة الطلب ففيها ما يضحك الثكلى وفيها مايبكي اسفاً وخجلاً فلو نظرنا الى بعض الكتابات لرأيناها من المعميات لا يبدو فيها فكر واضح ولا يتطلع منها الى مقصد صريح فاذا اسندت الوظائف الى من لا يستطيع التعبير عن افكاره فكيف يقوى على القيام بوظيفته . وهناك قوم لا يخرج من شق قلمهم جملة واحدة مستقيمة ويطمحون الى تنظيم المحاكم وسن القوانين واصلاح الخلل فلله ابوهم اما يخجلون ؟

وقد تكاثر هذا الجيش جيش طلاب الوظائف وتعاظم وانضوى اليه خلق كثير فكل من ضاقت حاله او قل ماله يعمد الى ورقة يسودها في طلب وظيفة ويخال له ان الحكومة مجبرة على تعيينه وان لم يكن مركز فارغ فعليها ايجاد وظيفة خصيصة له وقد زاد التطفل على الحكومة المنتدبة حتى اعتقد كل من قال كلمة مدح او شكر فيها ان له الحق في ازعاجها وحملها على اسعافه ومنهم من يأتي بتواريخ آبائه واجداده ليبرهن عن حبه للدولة الفرنساوية مع انه لو برزت صحيفته كما هي لخجل منها

ومنهم من يقول ان الدهر اخنى عليه وانزل به الكبائر فيلتجيء الى الحكومة لتجد له وظيفة يتعيش منها كأن الحكومة مكتب

لا يجاد مراكز للمستخدمين

ومنهم من يهدد الحكومة بالمهاجرة ان لم تقلده وظيفة يقيم بها في بلاده هذا والبلاد تئن من الغلاء، والكسل منتشر في جوانبها واليد العاملة تكاد ان تكون مفقودة فيها فاعجب كيف ان بعض المتمولين يطمحون الى الوظائف ويدّعون حب الوطن ولا يعمدون الى عمل يحيا الوطن به وينتعش . فما كان اجدرهم بدلا من التهافت الشديد على النار المحرقة وما الوظيفة الا نار محرقة بان يؤلفوا شركة او يستثمروا ارضاً او يفتحوا معملاً



بعض المتوظفين

ما توظف حتى عظم في عين نفسه فشمخ بانفه ونظر الى الناس شزراً. اذا مرّ في شارع اخذ الناس بصدره. واذا استقبل في مكتبه قطب حاجبيه وادلى شفتيه ونفخ خديه واخذ يتكلم برفعة وعظمة يضنّ بالفاظه كأنما هي درر يجود بها على سامعيه – وهيهات ما بينها وبين الدرر – فيلوكها في فيه ويسمح بها واحدة واحدة. هذا اذا رأى في زائره جدارة بالفاظه والا فلا يتكلم الا بالاشارة من رفع حاجب وتقليب شفة وهز اصبع

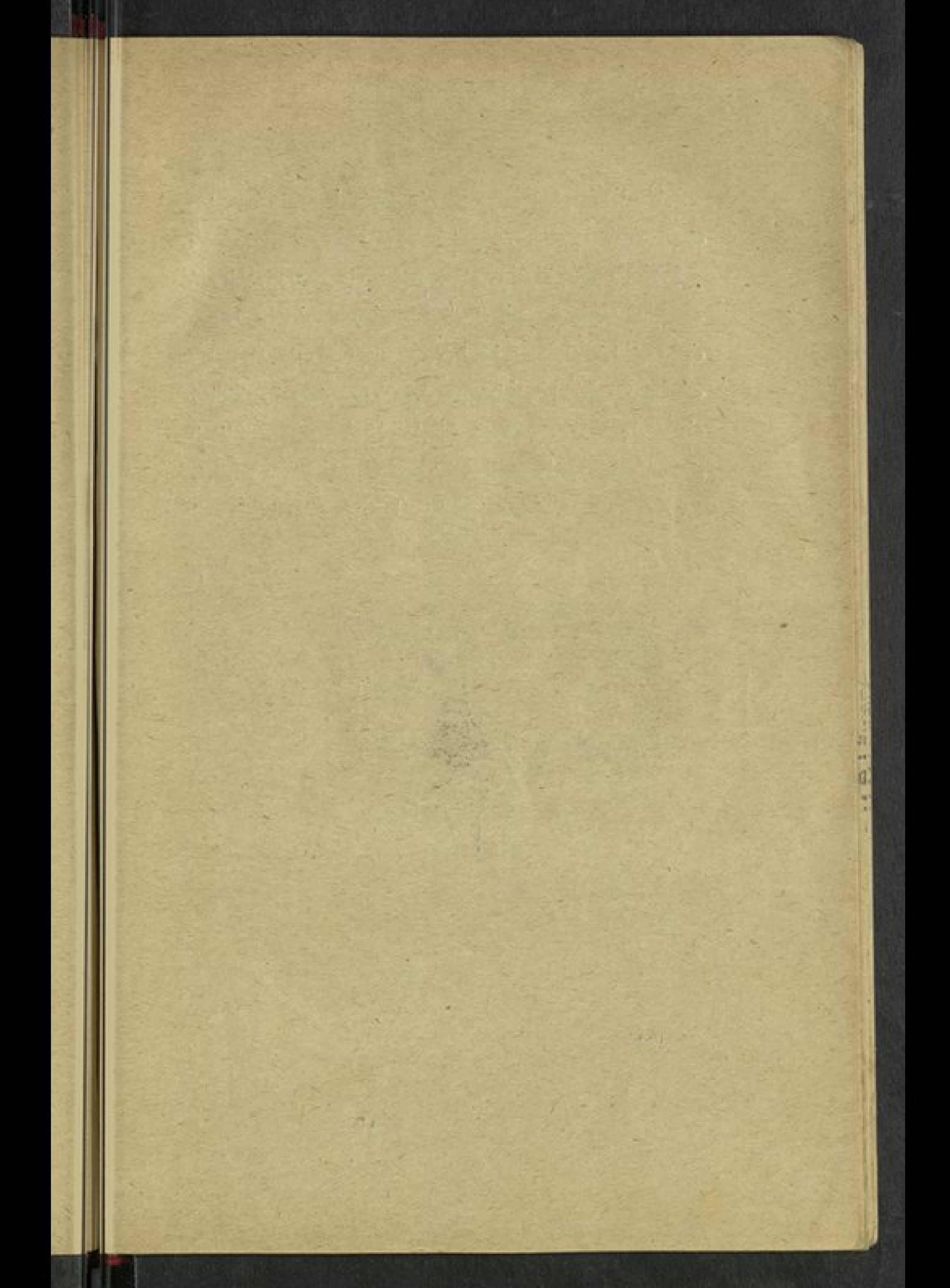
مرض يصيب كثيراً من صغار المتوظفين اللبنانيين. وقد يصيب كبارهم ورثوه عن الزمن البائد

ولكن أوقفْ احد هؤلاء المتغطرسين امام رجل اجنبي مهما كانت جنسيته ومهما كان مركزه من الهيئة الاجتماعية فتراه يهلل ويكبر ويقدم اليه كلتا يديه ويوسعه اكراماً وتبجيلاً ويكاد ينبطح امامه ثم يدعوه الى بيته ثم يولم له – على عيون الاشهاد – ثم يقتّر على نفسه

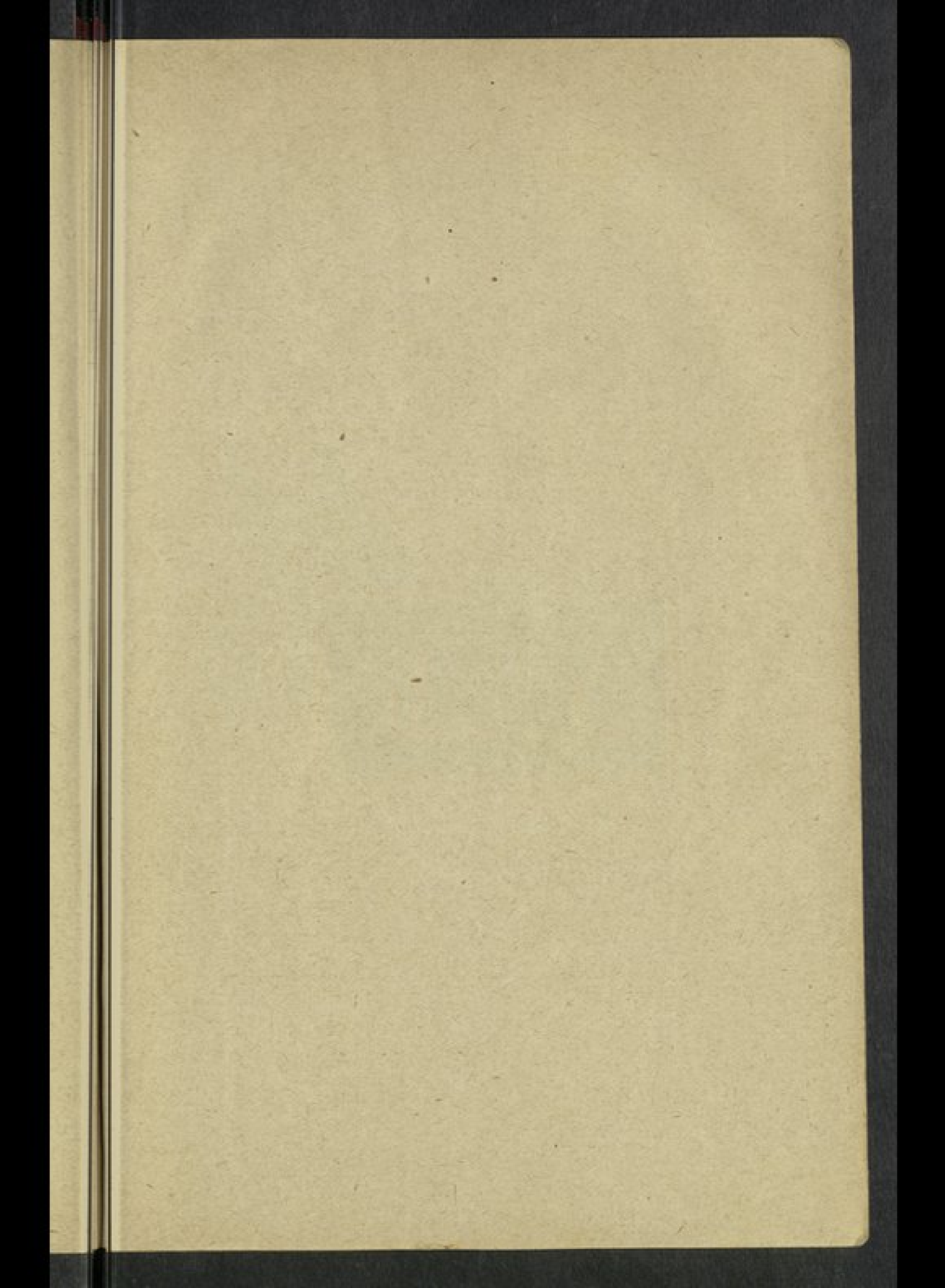
وعلى عائلته ليبدو في مظاهر الثروة وبحبوحة العيش. ثم اذا ولى قام يملأ شدقيه حنقاً وحقداً على الاجانب ويقول : انهم الطامة الكبرى لهذه البلاد. وينحي باللائمة عليهم من غير ما تفرقة بينهم ولا تمييز ؟

ما رأيك في مأمور في احدى الدوائر العمومية كالبريد والجمرك وما شاكلها اذا رأى اجنبياً — وان لم يعرفه — ترك مواطنيه وخرق له النظام وقدمه على غيره وقضى له حاجته بلطف بل بزيادة من اللطف ثم اذا انتهى معه وعاد الى اهل البلد دمدم وزمجر وابرق وارعد كأنه سيد مستبد على سدة ملكه وبالغ في اظهار سلطته وعلو شأنه حتى انه يوقف اصحاب الاعمال الزمن الطويل ولا محوج ولا مبرر لذلك






الفتاتان



التائه

. . . قد يمينها . وتجمع بشمالها على صدرها خرقاً بالية تستر بها جسماً نحيلاً يهزه الزمهرير هزاً . تتوسل الى المارة لاحظاً ملؤها البؤس والتعاسة ترقق قلوبهم بكلام متقطع كانه فلذات تنفث بها من كبدها

والناس بين منتهر وذاهل يغضون جفونهم دون الشقاء او يميلون عنه برؤوسهم مخافة ان تقع العين عليه او تجد الرحمة به طريقاً الى قلوبهم

فتاة في العاشرة من عمرها حافية القدمين منثورة الشعر ياخذها البرد فتصر اسنانها وتضطرب اعضاؤها . والسماء ترذ رذاذاً

اذا لجأت الى رصيف امام حانوت صاح بها صاحبه ودفعها الى السيل تمر بها السيارات وتكاد تدهسها ولا تنبهها . كأنما هي شيء لا يلتفت اليه ولا يؤبه له

تنظر الى الناس ملتحفين بمعاطفهم وشالاتهم متحصنين دون البرد بفروهم وصوفهم واحذية لامعة كأنها المرايا . ينتقلون في مركبات او

سيارات تقلهم مع اولادهم من مخزن الى مخزن يتخيرون الهدايا واللعب والعرائس وما هناك من انواع المأكولات والملبوسات

وكلهم لاه عنها مغتبط بسعادته. وهي لا تطلب عيداً ولا تحسد احداً. انما تمد يدها تسأل بعض هؤلاء المترفين ما يسد جوعها وما يمنع اظافر الموت ان تنشب في عنق والدة مريضة تتناوبها الحمى في كوخ متداع يصفر فيه الريح صفيرا

تنتقل من رصيف الى رصيف. كلما توسمت باحد خيراً مدت اليه يدها وقل من يحن على الفقير البائس. وقل من ينقبض قلبه لمشهد الشقاء. والناس يتأهبون لعيد الميلاد ... ميلاد «الفقير» الذي ضاق به الكون على رحبه ونبذته الفنادق والمنازل فاتى العالم في غار قصي بعيد عن الناس لا يرد عنه قوارس البرد الا قبلات امه وابيه

...

وهي كذلك اذ وقفت امامها مركبة نزل منها رجل في مقتبل الشباب وتلته فتاة صغيرة كأنها ملاك هابط من السماء يبدو شعرها الاشقر من دون قبعتها البيضاء كاكليل من الذهب. تدير لحاظاً كأن احداقها فوق زنبق تجمع يديها في فرو رمادي وعلائم البشر منتشرة على جبينها الوضاح

وما علق طرفها بالفتاة المسكينة حتى وقفت وهشت لها واقبلت اليها تسائلها عن حالها :

— اين كنت هذا الصباح فلم ارك امام باب المدرسة ؟

فاجهشت الابنة ببكاء واجابت والدموع تتناثر على وجهها :

— امي طريحة الفراش . تركتها والحمى تصارعها ... تركتها

اتطلب ما تتقوت به . ولكن هذي يدي ياسيدتي فارغة . لم انل شيئاً منذ الصباح و . . .

فظلت الفتاة الغنية واجمة تنظر اليها خجلة من نفسها ترى ماعليها من الثياب الفاخرة وما هي فيه من الرغد والهناء . وماعليه تلك المسكينة من العري والجوع . . .

ترى والدتها ترفل في اثواب الحرير بين الرياش الثمين وفوق الطنافس المزركشة وتلك الام تتقلب على فراش من الاوجاع في كوخ ضيق رطب عارٍ من كل لوازم الحياة .

فاخذتها الشفقة وكاد الدمع ينفر من مقلتيها

ثم مدت يدها الى جيبها وانالتها ما وجد معها من الدراهم . ثم استخبرت عن مقرها فاذا هو قريب من دارها

وبيناهما كذلك اذ رجع الوالد يتفقد ابنته . وكان قد سبقها ودخل المخزن ظاناً انها تتبعه ولما شعر بتخلفها رجع على عقبه خائفاً مذعوراً

— ماهذا ياليلى . ومن هذه التي تتكلمين معها ؟

— فتاة مسكينة متسولة تقف كل يوم صباحاً امام باب المدرسة امها مريضة وليس لها من معين ! مسكينة هذه الفتاة ما اجملها وما الطف لحاظها ! . . . قد شعرت بقلبي ينبض شديداً عندما عرفتني ومدت يدها تسألني

. . .

مشت الفتاة وراء ابيها في مخزن واسع الارجاء على جوانبه الخزائن المزججة فيها من البضائع والالبسة ما يأخذ بالقلوب وتعلق به الابصار وهناك موائد نضدت عليها معروضات العيد من لعب على هيآت مختلفة

بين مدفع ومركبة وطيارة وقطار وسيوف معلقة على جنود صنعت من الخشب او الجص تحف بعرائس ووليدات حمر الوجوه منفتحة العيون او متحركتها اذا اوقفت انفتحت واذا انيمت اغمضت . وبين يديها كرات من المطاط وعلب من الملبس والحلوى تتطاول اليها اعين الاولاد وتشرئب لها اعناقهم . واهلهم ينتخبون لهم من بينها

فوقفت ليلى امامها ذاهلة عنها لا تراها كأنما قد سدل دونها ستر لا ترى عليه الا تلك المتسولة المرتجفة تجمع خرق ثوبها البالي الى صدرها وتستوقف المارة تسألهم ما يمسك الرمق في صدر والدة تتألم على حصير بال . . .

واشار الوالد الى ابنته ان ترى ما هو احب عليها من تلك المعروضات الساحرة . فاومأت اليه تعني انه حر يفعل ما يشاء .

فاستغرب الوالد وتعجب لانها هي كانت الملحة في مرافقته الى السوق لتختار لها ما تريد

واذ اصرت على عدم تدخلها في الانتقاء عمد الى لعبة صنعت على هيئة دب طويل الصوف متحرك المفاصل . فاشتراها واشترى علباً من الملبس والشوكولاتا والحلوى ثم رجعا الى المركبة فجرت بهما الى البيت

ولمحت ليلى تلك الفتاة المسكينة فابتسمت لها . فردت لها ابتسامتها شكراً . فكان ذلك كوميض برق بين غمامتين

. . .

رأت ليلى تلك الفتاة تضطرب بين ايدي القر والفقر كأنها زهرة هبت عليها ريح صرصر فتأثرت وغشي فؤادها من الحزن ما افقدها سرورها وحملها على السكون بعد تلك الحركة الدائمة

انها كالصحيفة البيضاء طاهرة نقية لم يجد الشر الى قلبها سبيلاً كلها شعور شريف لا تدري كيف تخفي ما بها من بؤس او نعيم بل يظهر ذلك في وجهها وفي لحاظها فاذا ضحكت ففؤادها يضحك واذا بكت ففؤادها يبكي

هي مخيلة واسعة ترتسم فيها مشاهد الحياة كل فئة منها على حدة. اذا استحضرت متهافتة مرت امامها متسلسلة متوالية كأنها صور متحركة تعرض لها على ملاءة بيضاء. فالفقر يتمثل لناظري مخيلتها طفلاً عارياً على ذراعي امرأة شاحبة اللون خلقة الثياب حافية القدمين او شيخاً موقر الظهر ابيض النظر يتطلب طريقه بعصاه او مقعداً ملقى على جانب الطريق يمد يده ولا ينبس ببنت شفة

فهذه المناظر تثير الرحمة في قلبها. فتتفكر بما يخفف من اوجاع تلك النفوس المتألمة فيمر اذ ذاك في خاطرها ما رأت وقرأت وسمعت عن اعمال الاحسان والشفقة فتنظر في نفسها تسألها عما تقوى عليه يدها الصغيرة من تضميد جراح القلوب وتخفيف آلام الاجسام

...

من رأى هذا الرأس الملكي تسنده تلك الانامل اللطيفة وتحوم على وجهه افكار تكاد تقرأ في عينين سوداوين عميقتين يقف مبهوتاً يشك في انه يرى ملكاً لا فتاة في الحادية عشرة من عمرها. يراها تقطب حاجبيها حيناً تجهد نفسها في ايجاد طريقة تقوى بها على مساعدة صديقتها المسكينة المرتعشة على جادة الطريق تحت وابل من المطر. ثم تبرق على ثغرها وفي لحاظها ابتسامة كأنها وجدت ما تطلب

كم قرأت لها المعلمة من فصل عن احسان الاولاد نحو الفقراء. فهذا

يقتسم خبزته مع فقير يعترضه في ذهابه الى المدرسة وذاك يأخذ بيد اعمى يوصله الى بيته او يرشده مخافة ان يعثر فيسقط

تلك قصص تحيي العواطف الشريفة وتهذب الاخلاق السامية

اما المأساة التي تحرك نياط فؤادها وتصعد الدمع الى شؤونها فهي وقوف العذراء وخطيبها امام الفنادق يسألان اصحابها مأوى يبيتان ليلتهما ولا يجدان الا قلوباً صخرية وابواباً موصدة والثلج يتناثر متواليًا يمد بساطه الابيض فوق الارض الراقدة ومن فوقه قبة سوداء حالكة الاديم يكاد يلمسها المرء بيديه. ثم ضربهما في الليل في الطرقات المطموسة والتجاؤهما الى تلك المغارة حيث وضعت مريم طفلها ولا من يحف به الا والداه وحيوانات عجماوات تدفئه بنفسها

...

تصورت ليلى ذلك المشهد ثم رجعت بالفكر فقارنته بكوخ حقير يزمر الريح في جوانبه تتقلب فيه على حصير بال امرأة قد رفع الموت محصده فوق رأسها

ثم رأت الرعاة يأتون بهداياهم الى المغارة يلقون بها لدى المذود. اما تلك المسكينة فلا تترقب الا قدوم ولدها... وما يحمل لها ولدها؟...

ولبثت ليلى على هذا مدة. ثم رفعت رأسها وتأملت الدب القاعد امامها على «الطاولة» ويداه على ركبتيه واطالت النظر اليه ثم خاطبته قائلة:

— ما عسانا ان نصنع لتلك المسكينة؟

...

عيد الميلاد هو عيد الصغار. لهم فيه الحظ الاوفر يتلقون الهدايا من كل حدب وصوب ويظهرون فيه بعض تسلطهم على قلوب ابائهم. واذا

كان الولد وحيداً استولى على صولجان الملك وحكم بامره

وكانت ليلى وحيدة لابيها وامها وهما على جانب عظيم من الثروة يحبان ليلاهما حباً لا يوصف ويطاوعانها في كثير من الامور. ولم تكن مع ذلك لتجرر وتستبد بقلبيهما بل انها كانت كالزنبقة الذكية تتضوع عطراً وتزهو جمالاً لاتبدي تكبراً ولا تعرف عناداً

وكان لليلى اقارب كثيرون. وقد اجتمع عندها تلك الليلة عدد منهم جاؤوا يعايدونها ويحملون اليها هداياهم ويسهرون حتى اذا انتصف الليل نهضوا الى سماع القداس الالهي

وبيناهم في البهو بين محدث يستجلب الانظار. وضاحكة تبرز عن ثنايا كالدراري الابكار. ومنتصب امام نارجيلة تهدر هدير المياه في الانهار. ولاعبة بالورق تلوم ظالمة الاقدار. اذ دخلت ليلى عليهم تسحب خلفها دبها وبيدها قضيب تتوكأ عليه

فتناولتها الايدي وتناقلتها الثغور وهي تتملص من ذراع لتقع في ذراع والدب يجرر رجليه وراءها وامها تعجب بها وتحضنها بانظار ملؤها رقة وحنان وفخر واعجاب

وهناك على منضدة جمعت الهدايا المختلفة بين مأكولات وملبوسات ولعب وازهار كلها تشعر بما لليلى من المنزلة في قلوب ذويها واهلها

ولما عاد كل الى مقره وكاد ان يكون السكوت شاملاً وقفت ليلى في وسط البهو ونظرت متبسمة وقالت :

— بارك الله في اعماركم واعاد هذا العيد عليكم مراراً عديدة. ان قلبي ليرقص شكراً لكم. فما هذه الحلى وهذه اللعب الا دليل حبكم لي. واني لاحبكم كثيراً كثيراً

احبكم « قد البحر » وقد شئت ان اعرب لكم عن حبي فاتيت بدبي هذا ليقوم امامكم بالاعيب لم تحلم بها عيونكم . فهو طوع امري يأتي ما اريد . يرعى غنمي ويصارعني ويرقص معي ويموت ويحيا لاجلي ولكنه لايؤذي . فلا تخافوا (ضحك وتصفيق) . اما انا فاشترط عليكم شرطاً اذا قبلتم به رقصته والا فلا

الجميع — ما هو شرطك . . . اننا نقبل به

ليلى — من القوانين المرعية في هذه المهنة ان صاحب الدب اذا انتهى من ترقيصه يدور على المتفرجين بقبعته يتقاضى منهم اجرته ويجمع ما تجود به اكفهم . فهل تقبلون بذلك ؟

الجميع — نعم نقبل .

ليلى — فاستعدوا الان على ان تبرهنوا عن كرمكم الحاتمي واعلموا ان هذا المال لا يذهب في جيبي بل في سبيل مشروع خيري (تعجب وعلى الوجوه علامة إستفهام)

اراكم تتعجبون ولكني لا ابوح لكم بسري الان . وازيدكم اني سادعوكم الى امر عظيم . فهل تطيعوني ؟ . . . لاتخافوا ! فلست اذهب بكم الى البحر ولا الى مغارة للصوص ولا الى الحرب (ضحك واستغراب) فهل تقبلون ؟

الجميع — نعم نقبل

. . .

وساد السكون بين الحاضرين ينتظرون رقص الدب

واخذت ليلى توقفه وقفات مضحكة . وتحمله هراوة الرعاة على كتفه . وتداعبه . وتضغط على بطنه فينبعث منه صوت منكر . وهي

في كل ذلك تنشد له الاغاني . تلاطفه طوراً وتوبخه تارةً حتى اغرب الحاضرون ضحكاً وكاد ان يغمى على بعضهم

ولما انتهت امسكت الدب قبعةً ودارت به على المتفرجين فملأوها اوراقاً نقدية مختلفة الالوان والاشكال .

فشكرت لهم واحنت رأسها وقالت :

— اما الان فارجوكم ايها السادة الاكارم ان تتبعوني من غير ممانعة . خذوا عصيكم وقبعاتكم ومعاطفكم وفروكم . وتحصنوا دون البرد . وهذه سلال فليأخذ كل واحد منكم سلة منها واحملوا علب الحلوى هذه وهيا بنا

. . .

مرت العاصفة فتلبدت الغيوم في السماء ثم انحلت وابلاً هطالاً . ثم تمزقت في القبة الزرقاء . فانتشرت خرقاً بيضاء قابلها القمر بانواره الفضية فكانت كاجنحة الملائكة ترف فوق المغاور العديدة التي يتخذها الناس في المعابد والمنازل ذكرى لعيد ميلاد المسيح

وكانت اطراف بيروت هادئة ساكنة لا يسمع المار في اسواقها الا وقع اقدامه ولا يرى امامه الا لمعان القمر فوق المياه التي غادرها السيل في حفر الطرقات

ولكن هناك حركة وصرير باب ينفتح على مصراعيه وجماعة من نساء ورجال يخرجون منه ماشين وراء فتاة صغيرة تحمل بين ذراعيها « دباً » وهي تشير اليهم ان يتبعوها . يحمل كل واحد منهم غرضاً فهذا سلة وذاك كيساً وذاك اناء .

اتراهم ملوك مجوس يحملون الهدايا الى مسيح الرب ؟

اترى تلك الفتاة نجماً يضيء لهم يرشدهم الى مذود ذاك المسيح؟..

يسيرون مجتمعين منفردين متعجبين يسأل بعضهم بعضاً عن غاية سيرهم ولا يدري ذلك الا ملاك الطهر والرحمة والمحبة الذي استولى على قلوبهم وجذبهم اليه ومشى بهم الى حيث يشاء.

هو يلقي درساً من العطف على الفقير ومواساة البائسين · فهل يفكر في ذلك الاغنياء، مالم تلمس قلوبهم يد لطيفة وثغر باسم وقلب طاهر. يضرب الغني يده الى جيبه وينثر ما فيها من الدراهم فيما لا يدري ولكنه يقبض عليها بجمع يده اذا سأله الفقير منها شيئاً

***

وصلت تلك الجماعة امام كوخ صغير فوقفت ليلى ووقف تابعوها ينتظرون ماذا يكون

ثم قرعت الباب قرعاً خفيفاً. ولم تلبث ان سمعت صوتاً ضعيفاً يسأل عن الطارق

ثم انفتح الباب وظهرت فتاة مستترة بثوب بال وهي ترتجف من القر. وهناك في زاوية من الكوخ حصير عليه امرأة القت الفتاة عليها كل ما عندها من ثياب ترد بها هجمات البرد

فبهتت الفتاة المسكينة اذ وقع نظرها على كل هذا الجمع وداخل قلبها خوف. لكن ليلى استدركت الامر وبادرتها قائلة :

— ياصديقتي العزيزة نحن قوم ظهر لنا نجم في السماء كما ظهر للملوك المجوس من قبل. فسرنا وراء ذلك النجم ليرشدنا الى مغارة فيها طفل صغير. وقد وقف بنا امام هذا الباب فهل عندك تلك المغارة ؟

فاشارت الفتاة المسكينة الى ناحية من الكوخ · فاذا هناك شمعة

منارة وطفل من الجص صغير يكاد لا يرى بين خضرة من طحلب وقصاع فيها نبت عدس وحمص

فتهلل وجه ليلى لهذا الاتفاق ونادت برفاقها : هيا ادخلوا وقدموا للطفل هداياكم

فدخلوا ووضع كلٌّ هديته بين يدي الطفل حتى كادت السلال تملأ جانباً من الكوخ ثم اقتربت ليلى من صديقتها لتعطيها ما حملت لها من الدراهم فاذ هي تبكي . . . فرحاً وسعادة

. . .

قال لي من شهد ذلك وحدثني به انه لم يلاق في ما مضى من حياته من السعادة ما لاقاه في تلك الليلة



